منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2491) السنة التاسعة - الاربعاء (23) أيـار 2012

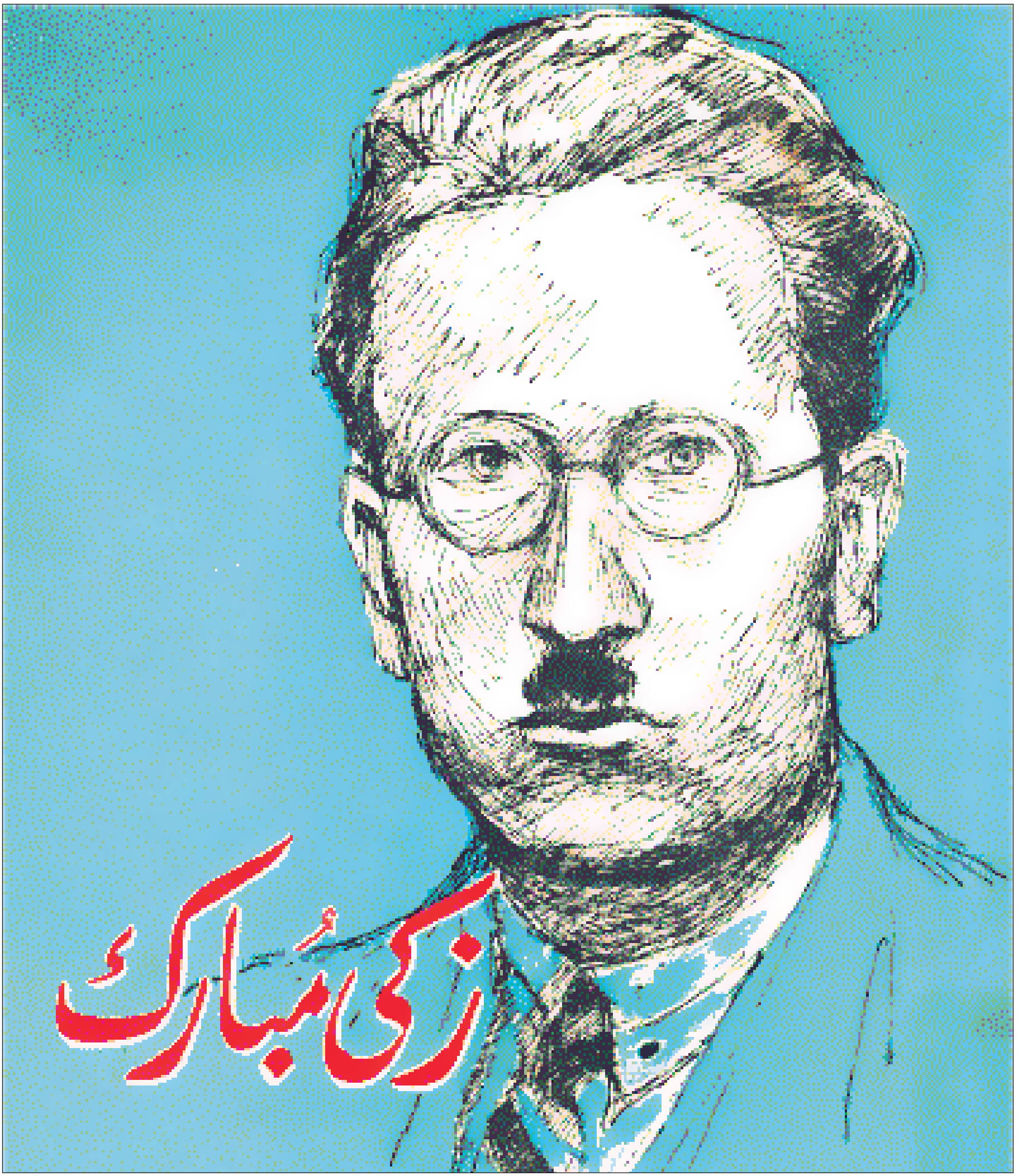

زكي مبارك.. ثلاث دكاترة في رجل واحد

اعداد / منارات

شاعر وكاتب بارز، تأثر شعره بالصوفية التي قام بتدريسها بعد ذلك في العديد من أقسام الفلسفة واللغة العربية في الجامعات المصرية.

وُلد زكى عبدالسلام مبارك في ٥ أغسطس ١٨٩٢ بقرية سنتريس بمحافظة المنوفية، قضى أيام طفولته في (الكُتاب) يحفظ القرآن وفى (الغيط) يعمل مع الفلاحين وفى (السامر) يستمع إلى المداحين وعشق المواويل.. ومن هنا ولدت في وجدانه ملكة الشعر. حفظ القرآن الكريم في طفولته، ثم حفظ ما يزيد على ثلاثين ألف بيت من الشعر العربي، والتحق بالأزهر في عام ١٩٠٨، وهناك لقب بشاعر الأزهر، وبعدها حصل على ليسانس الآداب في عام ١٩٢١، ثم حصل على ثلاث درجات دكتوراه متتالية لقب بعدها بالدكاترة زكي مبارك.. كانت الأولى عام ١٩٢٤ في "أخلاقيات الإمام الغزالي" من جامعة السوربون الفرنسية، والثانية من الجامعة نفسها في ٢٥ أبريل عام ١٩٣١ عن "النثر الفني في القرن الرابع الهجري"، والثالثة من الجامعة المصرية (القاهرة حاليا) عن "الفلسفة الإسلامية والصوفية في الإسلام" في عام ١٩٣٧، والتي تطرق فيها إلى أصل كلمة "صوفية".

اشترك زكى مبارك في ثورة ١٩١٩ وكان يتميز بقصائده وبلاغته المثيرة للحماس وقامت السلطات البريطانية بالقبض عليه في ديسمبر عام ١٩١٩.

تولى زكي مبارك مسؤولية المحرر الأدبي لجريدة البلاغ في عام ١٩٢٣، ورأس تحرير جريدة الأفكار، لكنه لم ينل حظه من المناصب في مصر لكثرة معاركه الأدبية مع أفذاذ عصره من أمثال: د. طه حسين، وعباس محمود العقاد، وإسماعيل القباني، وإبراهيم عبدالقادر المازني، وغيرهم، كما أنه فضل الابتعاد عن التيارات الحزبية ومماألأة القصر والنفوذ البريطاني،، وله دواوين شعرية شديدة الرومانسية، وأشهرها مدامع العشاق، كما كان ينشر إبداعاته النثرية والشعرية في المجلات والصحف، وآخر مقالاته التي داوم على نشرها "الحديث ذو شجون"، ومن بين مؤلفاته:

العشاق الثلاثة، عبقرية الشريف الرضي، ألحان الخلود، الموازنة بين الشعراء، وغيرها.

ثم عمل في الجامعة، وفي تفتيش وزارة المعارف، وقد قابل الكثير من المثبطات المجهضات، ولكنه كان يقف في مواجهتها شامخاً، وفي عام ١٩٣٧م رُشِّح للعمل في بغداد لتدريس اللغة العربية في دار المعلمين العالية التي وصلها يوم ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٧م بعد أن مر بفلسطين وبيروت ودمشق. وقد سعد في العراق بمعرفة وصداقة كثير من أعلامه، وعلي الرغم مما لقي في العراق من تكريم إلا انه ظل يحس بالظلم في مصر وهو يعبر عن ظلمه اصدق تعبير بقوله "إن راتبي في وزارة المعارف ضئيل، وأنا أكمله بالمكافأة التي آخذها من البلاغ أجرا علي مقالات لا يكتب مثلها كاتب ولو غمس يديه في الحبر الأسود... إن بني آدم خائنون تؤلف خمسة وأربعين كتاباً منها اثنان بالفرنسية وتنشر ألف مقالة في البلاغ وتصير دكاترة ومع هذا تبقي مفتشاً بوزارة المعارف" وقد منحته دولة العراق وسام الرافدين في عام ١٩٤٧.

كتب زكي مبارك ٤٥ كتاباً منهم كتابين باللغة الفرنسية عندما كان في فرنسا. كان موضوع كتابه "أخلاقيات" يرتكز على كيفية أن يكون المجتمع الإسلامي كما رآه الإمام الغزالي. كما ألف رواية واحدة سميت "دموع العشاق" والذي اتبع في كتابتها الأسلوب الفني المعروف وهو المقدمة والحبكة والذروة والنهاية وكانت تتعامل الرواية مع أسرار الحب.

وفى اليوم ٢٣ يناير ١٩٥٢، سقط زكى مبارك في شارع عماد الدين فشج رأسه شجاً كبيراً ليموت بعد ساعات قليلة، وبعد ثلاثة أيام احترقت القاهرة (٢٦ يناير ٥٢) لينشغل كل الناس في الهم السياسي.

كتبه

كتاب "النثر الفني في القرن الرابع الهجري"، وهو رسالة دكتوراه زكي مبارك من السوربون
كتاب "ذكريات باريس"، زكي مبارك
كتاب "البدائع"، زكي مبارك
كتاب "مدامع العشاق"، زكي مبارك
كتاب "أحمد شوقي"، زكي مبارك
كتاب "حافظ ابراهيم"، زكي مبارك
كتاب "جناية أحمد أمين على الأدب العربي"، زكي مبارك
رواية "ليلى المريضة في العراق"، زكي مبارك
رواية "العشاق الثلاثة"، زكي مبارك
كتاب "المدائح النبوية في الأدب العربي"، زكي مبارك
كتاب "زكي مبارك، سيرة ذاتية"

افتتن الدكتور زكي مبارك (أو الدكاترة مثلما أحب) بمذهب فرنسيّ لخصه الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه الجميل (من أعلام العصر: كيف عرفتُ هؤلاء، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ص ٨٩ و٩٠) وروى حواراً دار بينهما قال فيه مبارك:

× إن أفكاري تتبدلُ بتبدل الزمان، لقد وُجد في فرنسا مذهبٌ يدعو إلى تسجيل الأديب كلّ خواطره كما تفد إلى ذهنه بدون ترتيب؛ ليعطي القارئ صورة صحيحة لما يجري بين أطباق الدم واللحم..!

×× عبّر عن رؤية قد تفتقد (الرويّة) دون أن تختلف مع حقيقة النفس الطّامحة – الجامحة التي يمتزج تركيبُها باختلاط الهواجس بالأنفاس (وهذا تعبير يستعيره صاحبكم من أستاذه الكبير عبد الرحمن البطحي الذي يدين له بكثير غيره)..!

×× ليكن الأمر كذلك في نصٍّ وجدانيّ، غير أن (مباركاً) تجاوز ذلك حين أكّد لتلميذه البيومي:

× أنا أمدح حين أرضى، وأهجو حين أسخط، والذي يثبت على رأي واحد حَجرٌ في جبل لا يُحسُّ بتقلب الزمان وعصف الرياح..!

لم يُنصَفْ (مبارك) – وهو صاحب ثلاث درجات دكتوراه – فما شفعتْ له في التدريس بالجامعة، وأبعد عن (التفتيش) بوزارة المعارف المصرية – كما كانت تسمى –، ورأى نفسه (شهيدَ الحق) – ولم يكن كذلك –، ورغم أنه بدل أفكاره – مثلما أشار – إلا أنه آمن بمواقفه الحادة التي حارب دونها فخاصم الجميع، واستعدى الجميع، وهو ما لا يدخل في ثبات الموقف بعيداً عن دلالات (العصا والجزرة) التي لا يُقرُّها عالمٌ أو حتى متعلم..!

زكـــي مـــبـــارك وطـنـيـاً

كريمة زكي مبارك

لعل من أنصع الصور التي يمكن لنا أن نرى زكي مبارك من خلالها تلك الأيام التي عاشها الأديب الكبير الراحل د. زكي مبارك قبل الاعتقال وأيام الاعتقال أيام الثورة المصرية سنة ١٩١٩ كان زكي مبارك يومها شيخاً معمماً، وكان شاباً إذ أن مولده كان في الخامس من أغسطس ١٨٩١، وكان يخطب في المساجد والكنائس ضد الاحتلال البريطاني لمصر، وفي إحدى المرات حضر وفد الصحافة الأوربية وتبارى خطباؤهم في تأييد القضية المصرية، وقام الشيخ زكي مبارك ورد عليهم باللغة الفرنسية وبدأ خطبته بأن أنشد قول لافونتين: "حق الأقوى هو دائماً الأفضل".

وعلى هذا الأساس مضى وألقى خطبة فصيحة.

ومن تلك الأيام كان زكي مبارك يبيت في الجامع أثناء اشتعال الثورة، ولا يدخل غرفته في حي الغورية إلا في الليل، وقد حاصرها الإنكليز عدة مرات فلم يجدوه، وقضى ثلاثة أشهر شريداً طريداً لا يعرف أين يبيت، وكان مأواه غرفة فوق سطح بيت من " السبتية " بحي القللي في القاهرة، كان يقيم فيها عند أحد أصدقائه الشباب من بلدته سنتريس منوفية وهو أنيس ميخائيل.

يقول الدكتور زكي مبارك ١)

لم تكن لي رغبة في الاعتقال مع أنه فرصة للراحة من متاعب الحياة التي كنت أقاسيها أيام الثورة، فقد عشت مشرداً مدة تزيد على شهرين لأنه كان من الخطر أن أبيت في منزلي وهو في ذلك الوقت شقة صغيرة في شارع الغورية، ومن أدب الإنكليز احترام المعابد، وإذن فلا خوف من الإقامة في الأزهر الشريف بالليل، ولكنها إقامة متعبة فقد كان يتفق أن أقضي بعض الليالي بدون عشاء

(٢) (في إحدى الليالي مضيت إلى المنزل وأوقدت مصباحاً فاستهوتني القراءة وأنا أجهل ما سيقع، فقد طرق الباب طارق يقول: "افتح الباب يا أستاذ". من هذا الطارق؟ هو مأمور قسم الدرب الأحمر ومعه خمسة عشر جندياً. ذلك المأمور هو المرحوم الشيخ محمد فرج وكان هواه مع الثورة، فلم يعتقل أحداً من الثائرين إلا وهو راغم، فقد كانت أمور الحكومة إلى السلطة العسكرية.

قلت: (والكلام ما زال للدكتور زكي مبارك) قلت: أنا أفهم ما تريد يا حضرة المأمور ولكني أرجو أن تمهلني لحظات... ثم أهويت على الكتب فاخترت ما أحتاج إلى مراجعته من الأدب العربي والأدب الفرنسي، وربطت تلك الكتب في (بطانية) وخرجت محروساً بعناية الله المصورة في المأمور والجنود.

دخلت المحافظة وعلى باب المحافظة وجدت قسيساً يقول: أنا الشيخ زكي مبارك فاعتقلوني واتركوه... ولكن هذا لم يمنع بشيء فعمامة القسيس سوداء وعمامتي بيضاء.

دخلت المحافظة أولا فقد كان هذا واجباً إدارياً ثم مضت العربة إلى قصر النيل، وهناك قال الجندي الذي يصحبني: في أمان الله يا أستاذ... ثم أصعدوني إلى غرفة في المعسكر تشرف على النهر المبارك، فنظمت كتبي وأخذت أقرأ ما اخترته من الأدب الفرنسي.

وجاء الليل فأويت إلى مضجعي، وصحوت مع الفجر فتوضأت وصليت ثم نظرت فرأيت منظراً في غاية الجمال، رأيت أسراباً من الحمام ترفرف على النهر مع الشروق، ورأيت صور النخلات القائمة بالشاطىء الأيسر تتموج مع الأمواج... إنه منظر رائع... لن أنساه ماحييت.

ومن صباح اليوم التالي من أيام الاعتقال بعد شروق الشمس بساعات حضر رجل ضخم من رجال الحبس البريطاني ومعه مترجم، وأخذ في استجوابي بالصورة الآتية:

– أنت متهم عندنا بتهمتين خطيرتين، التهمة الأولى هي اشتراكك في تحريض المصريين على الثورة، بخطب كثيرة في الأزهر.

.هذا صحيح فما هي التهمة الثانية؟

– التهمة الثانية هي اشتراكك في تحرير المنشورات الثورية.

– هذا صحيح أيضاً.

– ولكن بريطانيا العظمى لا تصفح عمن يقترف هاتين الجنايتين إلا بشرط.

– ماهو ذلك الشرط؟

– هو أن يكتب بخطه أنه أخطأ وأنه تاب، فإن كتبت هذا سأفرج عنك في الحال.

ويرد عليه زكي مبارك قائلاً:

– إنك تطلب المستحيل يا حضرة الكومندان.

– وإذن ستبقى هنا.

– أنا مسرور بذلك.

– مسرور؟ كيف؟

– لأنني أشارك بريطانيا العظمى في إحتلال قصر العيني.

ويستطرد زكي مبارك قائلاً: كانت السلطة العسكرية تعطينا سبعة عشر قرشاً في اليوم فاشتركت في جريدة الأهالي وكان الأستاذ عبد القادر حمزة يصدرها في الإسكندرية.

زكـي مبـارك: سـأقضي دهــري كـلـه مديــناً للعــراق

ولد زكي مبارك في غرة شهر آب (أغسطس) من عام ١٨٩٢م في قرية "سنتريس" إحدى قرى المنوفية، ولما اجتاز مرحلة الطفولة دخل "كتاب" القرية ليحفظ القرآن الكريم، ويحذق شيئاً من الحساب، ويجيد الكتابة، ثم يلتحق بالأزهر الشريف. ثم سارع للالتحاق بالجامعة منتسباً إلى كلية الآداب بعد ما أتقن اللغة الفرنسية، ووجد لها أستاذاً يحدب عليه ويشجعه، هو "الشيخ محمد المهدي" الذي كان يعتبره زكي مبارك الأستاذ الأول له، ونال شهادة الليسانس عام ١٩٢١م، ثم حصل على الدكتوراه بدرجة "جيد جدا" عن رسالته "الأخلاق عند الغزالي" في ١٥ مارس ١٩٢٤م، ونظراً لتفوقه عُيّن مدرساً في الجامعة في أواخر سنة ١٩٢٥م، ولكنه ترك عمله واتجه إلى السوربون عام ١٩٢٧م وحصل على الدكتوراه الثانية عن رسالته القيمة "النثر الفني في القرن الرابع الهجري" التي قدّمها باللغة الفرنسية في ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١م.

د. حسين علي محمد

ثم عمل في الجامعة، وفي تفتيش وزارة المعارف، وقد قابل الكثير من المثبطات المجهضات، ولكنه كان يقف في مواجهتها شامخاً كالطود، وفي عام ١٩٣٧م رُشّح للعمل في بغداد لتدريس اللغة العربية في دار المعلمين العالية التي وصلها يوم ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٧م بعد أن مر بفلسطين وبيروت ودمشق.

"حاولتُ أنْ أفهم سرَّ هذه الحفاوة الشائقة فكان الجواب أن أهل العراق يرون زكي مُبارك من خُدّام الأدب العربي، وكذلك يُريد العراق أن يكون حارس الأدب في جميع الأجيال؛ فهو يُبدع في الأدب ثم يُكرم من يراهم من المبدعين.. وقد ألقيتُ خطبة في هذا الاحتفال.. وأهمُّ ما جاء في خُطبتي هو الدعوة إلى إنشاء جامعة عراقية، وسأجاهد بإذن الله في هذا السبيل جهادَ الأبطال، فأنا أغارُ على العراق غيرة شديدة، وأنت تعلم أن أكثر مؤلفاتي في أدب أهل العراق، وفلسفة أهل العراق".

كان قدوم زكي مبارك إلى العراق فاتحة عهد جديد في دنيا الثقافة والأدب في عاصمة الرشيد، إذ لم يكد يستقر به المقام حتى راح يعد عدته ويأخذ أهبته للقيام بما يحتمه الواجب الأدبي والثقافي، لا في دار المعلمين العالية وحدها، بل في مجالات متعددة، وعلى هذا كان أشبه بالمحرك الذي حرك الحياةَ الأدبيةَ في العراق.

وكان أولُ الغيث -كما يقول الهلالي- هو الاتفاق الذي جرى بينه وبين عمادة كلية الحقوق لإلقاء مُحاضرات أدبية عامة، فكانت "عبقرية الشريف الرضي" الشاعر العربي الكبير موضوعا لتلك المحاضرات التي بدأت أولاها في بداية ديسمبر من عام ١٩٣٧م تقريباً.

وقد كان لهذه المحاضرات (عرضاً ومادةً وأسلوباً) أثرها البعيد في الأوساط الأدبية والثقافية في العراق وخارجه.

فقد كتب عنها الأستاذ خليل الهنداوي في مجلة "المكشوف" اللبنانية يقول: "ليس الشريف الرضي رجلاً مغموراً ولكنه رجل محدود، وليس الشريف رجلاً خامل العبقرية، ولكن الحظ لم يُسلمه زمامها.. والدكتور في "عبقرية الشريف الرضي" وفق جد التوفيق في شرح هذه الشخصية المجهولة وتحليل العوامل التي تألبت على تكوينها، وما كان الدافع إلى دراسة هذه الشخصية إلا ما يجده المؤلف من مُشابهة بينه وبين شخصيته في تدفق الإحساس، وكآبة العاطفة، وسواد الحظ".

ولم يكتف الدكتور زكي مبارك بمحاضراته التي كان يُلقيها في كلية الحقوق، ولا مُحاضراته الأسبوعية التي كان يُلقيها في قاعة دار المعلمين العالية، بل أخذ يُلقي المحاضرات في الدور والأندية المختلفة، مثل محاضراته: "أدب التلميذ نظماً ونثراً" و"المذاهب الأدبية في مصر" و"العروبة في مصر".. وغيرها.

وكانت هذه المُحاضرات تجد صدى طيباً لها في كثرة التعليقات والردود.

وطاف زكي مُبارك بالعراق؛ فزار البصرة والنجف الأشرف وغيرهما، وكانت الجماهير تستقبله بمهرجاناتها الأدبية، وخطبائها وشعرائها.

ومن قصيدة الأستاذ الشيخ محمد علي اليعقوبي في ضيف النجف الأشرف "الدكتور زكي مبارك" قوله:

وأبيك لو بُعث الشريفُ محمدٌ
حيا رأى ما يبتغي ويرومُ
أوضحتَ سرَّ نظامِه حتى بدا
بالعبقريةِ سرُّهُ المكتومُ
قدْ خُضْتَ بحرَ قريضِه مُستخْرجاً
درا، سواكَ عليْه ليس يقومُ
ونشرتَ لابنِ أبي ربيعةَ قبلَهُ
ذكراً به شأت الورى مخزومُ
روّجتَ سوقَ النثرِ بعدَ كسادها
وبذاك يشهدُ (فنُّك) المعلومُ

وهو في الأبيات يُشير إلى كتبه "عبقرية الشريف الرضي"، و"حبُّ ابن أبي ربيعة وشعره" و"النثر الفني في القرن الرابع الهجري".. ثم يُشير إلى فصول زكي مبارك عن "ليلى المريضة في العراق"، بقوله:

أشجتْكَ ليلى وحدَها بسقامها
إنَّ العراقَ جميعَهُ لسقيمُ
لا ترْجُ من ليلى المريضةِ برءها
هيهات يشفى الدَّاءُ وهْو قديمُ!

ثم أخذت أيام السنة الدراسية التي انتُدب خلالها الدكتور زكي مبارك تمر سراعاً، ولكنه مع كل هذا كان كُتلة عمل دائب ونشاط منقطع النظير، فهو بالإضافة إلى عمله في دار المعلمين العالية كان يسهر الليالي في كتابة فصول "عبقرية الشريف الرضي" وحلقات عدة من سلسلة أحاديث "ليلى المريضة في العراق"، ويُساهم في اجتماعات المؤتمر الطبي العربي الذي انعقد في فبراير من عام ١٩٣٨م، ويزور حواضر العراق الكبرى، ويسجل ما جرى فيها وما عنَّ عنها من أحاديث وذكريات ضمّنها صفحات "ليلى المريضة" أو "وحي بغداد" أو "ملامح المجتمع العراقي".

ولو سألنا الدكتور زكي مُبارك عن السرِّ في كل هذا النشاط لاستمعنا إليه وهو يقول: "لا تسألوني كيف ظلمتُ نفسي فأعددتُ هذه المُحاضرات... وأنشأتُ معها مقالات كثيرةً جدا نشرتُها في صحف مصر ولبنان والعراق، ورجّحتُ الحياةَ الأدبيةَ في بغداد رجا عنيفا، فذلك كان أقلَّ ما يجب أن أصنع في مُقابل الثقة التي شرّفتْني بها حكومةُ العراق".

ولقد ازدادت أواصر الحب والألفة والمودة بينه وبين العراقيين. يقول زكي مبارك: "وقد فكرتُ كثيرا في الأسباب التي جعلت لي هذا الحظ المرموق في العراق، ثم رأيتُ أن الأسباب كلها تنتمي إلى سبب واحد وهو "الصدق"، فما تحدثتُ عن العراق الجميل إلا وأنا صادق، وإذا قيل إن العراق يجزيني وفاءً بوفاء، وإخلاصاً بإخلاص فإني أقول إني سأقضي دهريَ كلَّه مديناً للعراق، ولن أستطيع أداء ما للعراق في عنقي من دين ولو بذلتُ دمي وروحي في حب العراق وأهل العراق".

وفي الوقت الذي يقف العراق منه هذا الموقف اعترافاً بما قدّم للثقافة وللعلم والأدب، وما بذل من أجل العرب والعروبة، نجده في وطنه لا يُجازى إلا بالتنكر والإغفال والإهمال؛ فهو على الرغم من مؤهلاته العلمية والثقافية لم ينل بعض ما كان يتمتع به من كان دونه فضلاً وعلماً وأدباً.. لماذا؟ لأنه: صريح لا يعرف الكذب والرياء والنفاق، فلا عجب أن نراه برماً بحياته في وطنه، بعد أن حاربه ذوي السلطة والبأس حتى في رزقه، وحرّموا عليه لقمة العيش بينما كان الزعانف والإمعات يتنعّمون بأعلى الرتب والمناصب، وفي وسط هذا الجو الظالم تثور نفسه، ونرى أثر هذه الثورة وذلك الانفعال الذي يمور في مشاعره في قصائده ومقالاته، فإذا به يقول في إحدى قصائده:

إذا قلتُ: أيامُ الشقاء إلى مدى
تعاقبْنَ بالأنواءِ والبرْقِ والرَّعْدِ
وإن ظمئتْ روحي إلى الصَّفْوِ صدَّني
عن الصَفوِ أقْوامٌ جُبلْنَ على الحقْدِ
ثلاثون عاماً، أوْ تزيدُ، قضيْتُها
جواداً ببذْلِ الرُّوحِ للوطنِ الفرْدِ
فما نلتُ حظا منْ جداهُ سوى الذي
يمتْنَ به أهلُ الوشايةِ والكيْدِ
بلادي.. بلادي.. أنتِ من أنتِ؟ إنني
أجرَّعُ منكِ الصابَ ينعتُ بالشهْدِ
أُساهِرُ في ليْلي كتابي ولا أرى
لنفسيَ حظَّ السّاهرين على النَّرْدِ
فماذا دهى الدنيا؟ وماذا أصابَها؟
أسفْتُ وأمستْ وهْيَ في خسَّةِ القرْدِ

ويجيءُ هذا الكتابُ الشامخ "زكي مُبارك في العراق" مُسجلاً خطوات زكي مُبارك ونفثات قلمه، وأصداء العام الذي قضاه في العراق. وكأنَّ الكاتبَ الكبيرَ عبد الرزاق الهلالي (تلميذ زكي مبارك في مدرسة المعلمين العالية) يردُّ جميل أستاذه زكي مبارك، ويجيب على ندائه في قصيدته التي يودع فيها بغداد قائلاً:

أبغدادُ هذا آخرُ العهْدِ فاذكري
مدامعَ مفطورٍ على الحبِّ بكّاءِ
سيذكرُني قومٌ لديْكِ عرفتُهمْ
يحبون ظلاّمينَ ضرِّي وإيذائي
ستذكرُ أرجاءُ الفُراتيْنِ شاعراً
تفجَّر عن مكنونةِ الدُّرِّ عصْماءِ
سيسْألُ قومٌ عن زكيٍّ مُبارك
وجسْميَ مدفونٌ بصحراءَ صمّاءِ
فإن سألوا عني ففي مصرَ مرْقدي
وفوقَ ثرى بغدادَ تمرحُ أهوائي.

طه الراوي مع اعضاء مجلس الاعيان

بين طـه الــراوي ومبارك

حارث طه الراوي

من الراوي الى الدكتور زكي مبارك
وزارة المعارف – بغداد
التاريخ ٣ كانون الثاني ١٩٣٩
الى الاستـاذ المفاضل الدكتـور الزكي المبارك كلاك اللـه بعـين رعايتـه وامـدك بفيض من عنايتـه سـلام الله ورحمتـه عليـك وبركاته فيك.
امـا بعد.. فـاني رايت ان ابـدأ الكتاب بقصة قصهـا علـي بعـض الاشيـاخ قـال: مـر أحد الصوفية (وانت جد طروب بأحاديث القوم) بقرية من قرى ديار الروم فعرج على مقبرتها فاسترعـى نظـره آرام طويلـة مركـوز علـى بعـض تلك القبور وطفق يقـرأ ما كتب عليها فـاذا بعضهـا يقـول: هـذا فـلان.. سـاح في الارض وحج البيـت الحـرام وزار العتبات المقدسـة وتوفي سنـة.. وكان مجموع عمره خمسة ايام.. واخذ يستقري القبور فوجدها كلهـا على هـذا النمط والاعمـار تتراوح بين اليوم الواحد وعشـرة الايام فاخذه العجب، وقصـد كبـير القريـة فسألـه عـن سـر هـذه العجيبـة فأجـاب ان الامر بسيـط جدا وهو ان الواحـد منا عندما يبلغ اشده يحمل دفترا صغـيرا في جيبـه يسجـل فيه ايـام السرور التي يشوبها كدر فاذا هو توفي نخرج دفتره ونجمع فيه من ايام البهجة وحدها ونسجلها على قـبره لانها هـي العمر ومـا عداها ليس بشيء.
فقال له الصوفي: اخشـى ان تعاجلني المنية عندكـم فألتمـس اليكم ان تكتبـوا على قبري هـذه العبارة.. مات قبـل ان ولدته امه. لأني لم اذق لذة السرورة منذ عرفت نفسي.
هذه خلاصة القصـة، واذا سألني سائل: اي الساعـات تعدها من عمرك؟ اجيبه على الفور هي الساعات التي تجمعني بأديب يفهم عني وافهم عنه. اطارحه الحديث واجول معه في رياضـ القديم والحديث: واني لمعجب بقول القائل:
وما بقيت من اللذات الا
محادثة الرجال ذوي العقول
ولعلـك تسألني: لم حسبـت عمرك بالساعات ولم تحسبه بالايام.
والجواب واضح من اين لي الحظوة بمرافقة اديب يوما كاملا؟
وبعـد فهـل تعـدون معـي ان الساعـات التي كانـت تجمعنـي بكـم من العمـر؟ امـا انا فلا أماري في عدها كذلك.
جـاءني اليـوم شـاب يطلـب منـي صورتي ليرسلها اليكم فاهاج في نفسي بلابل اشواق كثـيرة وذكريات طيبـة وسالته لماذا لم يطلب الدكتـور صورتـي مني مباشـرة فاني شديد الشـوق الى قـراءة كتبـه؟ فـكان الجـواب السكـوت، وقلت في نفسي ان الدكتور معني الآن بالكتابة عن الصوفية وللصوفية احوال تميزهم عما سواهم من الناس وفي جملة تلك الاحوال انهم لا يقيمـون وزنا للاشباح بقدر مـا يقيمونه لارواح وعلى حـد اعتبارهم هذا فان صـورة الدكتور معي اينمـا كنت واينما كان فلا حاجة بي الى مطالبته بارسالها ولكن يظهـر ان صورتـي لم تكن معـه ولذلك ارسل يطلبها ولكن منعه الحياء ان يطلبها مباشرة وطلبها بيد صديق آخر وعلى كل فقد ارسلت اليه صورتي الشبحية اما صورتي الروحية فهي قريبة منه ويراها متى شاء واني شاء.
هـذا وارجو المغفـرة عما فرطت مـن تقصير وقبول خالص التحية من الاخ.

المخلص طه الراوي

من الدكتور زكي مبارك الى الراوي

حضرة صاحب السعادة الاستاذ طه الراوي
سيدي الصديق..
تلقيـت رسالتـك الكريمة وصورتـك الغالية، واللـه وحده هو القادر علـى ان يجزيك خير الجـزاء علـى تلطفك مـع اخيك الـذي يحفظ عهدك وعهد العراق.
واني لأرجـع على نفسي بالسلام في كل يوم علـى ما فطـرت في حقك يوم كنـت في بغداد ولكنك تعرف كيف كنـت عندكم، فقد كنت في اوقـات الفـراغ لا اصلح لمحادثـة رجل مثلك لاني لم اكن اخرج مـن داري الا بعد ان تفنى قـواي في الدرس والبحـث، وقـد اعتـذرت عندك بذلك فهل قبلت عذري؟
تفقدنـاك في لجنـة توحيـد المصطلحـات الطبيـة، فكيف بخلـت علينا بالحضـور؟ لو انـك حضـرت لعرفـت ان خطبتـي بالمؤتمـر الطبي في بغداد لم تضع، فقد استطعت بقوة المثابرة ان احمل كلية الطب بالقاهرة على ان تقرر تدريس الطـب باللغة العربية وستظهر ثمار ذلك بعـد حين ولا يفوتني ان انص على ان العشمـاوي بك والجارم بك كانا ينتظر ان مقابلتـك في المؤتمـر الطبي العربـي ونحن والله مشتاقون اليك اشد الاشتياق فهل نراك في مؤتمر الثقافة العربية؟
ارجو ان نـراك في المؤتمر القادم الذي تدعو اليـه وزارة المعـارف المصريـة، وارجـوا ان تعرفـوا انه ليس من الكثير ان يحضر عشرة من رجال التعليم بالعراق يكون فيهم الاستاذ طه الراوي.
وانمـا نصصت على هذا المعنى لاني احب ان تكون لـك يد في توجيـه الدراسـات العربية فهل تقبل مني هذا الرجاء.
فاتنـي ان اهـدي اليك كتـاب (وحـي بغداد) وكتـاب (التصوف الاسلامـي) وكان ذلك لان شواغلـي صدتني عن هـذا الواجب الجميل ولاني اعـرف انـك تجدهمـا بسهولـة في بغداد.
انـا الان مشغول بطبع كتـاب (ليلى المريضة في العـراق) وقـد امتد نفـس الكاتب فوصل الكاتـب الى مجلديـن كبيريـن وقـد تعطـر الكتـاب باسمك في مواضع كثرة، حفظك الله ورعاك.
هـل استطيـع ان اسألك عـن صحـة الاستاذ معروف الرصافي؟
ارجو ان يعرف اني ما نسيته وسأتحدث عنه قريبـا في الاذاعـة المصريـة.. واليكم جميعا تحيتي وثنائي.

المخلص زكي مبارك
١٩٣٩/٣/٣

عن كتاب (طه الراوي)

مبارك في الثلاثينات

زكي مبارك في العراق.. طرائف عن ذكرياته مع الادباء والشعراء

ليس بين القراء من لا يعرف الدكتور زكي مبارك – وان كان قد فارق الحياة قبل ثلاثين سنة – فقد اقترن اسم هذا الأديب الكبير باكثر المعارك الادبية التي نشبت على صفحات الصحف والمجلات العربي زهاء نصف قرن، وكانت له خصومات مع اعمدة الأدب العربي (طه حسين) و(العقاد) و(الرافعي) و(احمد امين) وغيرهم وغيرهم تمخضت حصيلة هذه المعارك عن كتب ممتعة ما زال يتداولها المتأدبون والأدباء منذ صدورها وحتى الان وربما استمروا على الافادة منها خلال القابل من السنوات.

ولزكي مبارك عشرات الكتب في مختلف فنون الادب ولكن ما انتجه في العراق من مؤلفات يعتبر من اهم ما كتبه هذا الاديب الكبير بالرغم من ان بقاءه في العراق لم يتجاوز العام الدراسي الواحد كان خلالها مثال الاستاذ الملتزم في اداء واجبه بدار المعلمين العلية بالرغم من اتساع نشاطه الاجتماعي فكان يزور أصدقاءه الادباء في المقاهي والمسارح وفي محلات عملهم وهو يرتاد القبولات والبيوت ويلقي المحاضرات الاضافية في النوادي ويذيع الاحاديث من محطة بغداد ويكتب للصحف ويقوم بزيارة المدن الهامة من العراق حيث اقيمت له حفلات تكريم في النجف والبصرة والموصل القيت فيها قصائد وخطب احسن الاستاذ عبد الرزاق الهلالي في جمعها بكتاب ضخم بعنوان (زكي مبارك في العراق) ومن خلال زيارات الدكتور مبارك (لنادي القلم) للقاء اصدقاءه (رضا الشبيبي) و(عبد المسيح وزير) و(عباس العزاوي) ومن خلال لقاءاته في (مقهى الشابندر) لاصدقائه الشعراء (عبد الرحمن البناء) و(ابراهيم ادهم الزهاوي).

ومن خلال جلساته مع مطرب العراق الاول الاستاذ محمد القبانجي وزيارته لادارات الصحف الف كتابه الفخم (ليلى المريضة في العراق) الذي كان يتابع القراء فصوله في (الرسالة) وكتابه الجميل (وحي بغداد) و (المسامرات والاحاديث)! ومن اثر اتصالاته بعدد من الادباء القى محاضراته عن (عبقرية الشريف الرضي) في كلية الحقوق والتي سجلها في جزئين ضخميين من الكتب الادبية الهامة التي نالت اعجاب الرصافي بالرغم من انه غير راض عن (الرضي) من نواح سياسية وادبية متعددة!

ولقد استطاع زكي مبارك ان يدون العديد من الاحاديث التي اجراها مع عدد من كبار ادباء العراق ويوم زار (الفلوجة) حيث كان يقيم الشاعر الرصافي استدرجه ليسجل اخر ما قال من شعره وكان منها هذا البيتان اللذان اثارا نشرهما سخط السلطة التي شعرت بانها مقصودة باللوم والعتب من الشاعر:

قد كان لي وطن بالامس اندبه
واليوم لا وطن عندي ولا سكن
ولم اجد من بلاد كنت اخدمها
الا حثالة قوم قاءها الزمن!

ولقد دافع زكي مبارك عن العراق يوم تصدت بعض الصحف العربية لمهاجمته كما سجل في انطباعاته عن الحياة العراقية الصور الجديرة بان تنال الاهتمام من المعنين بتاريخ العراق الادبي والاجتماعي. وكانت الصحف قد نشرت ان كريمة الدكتور مبارك طلبت من الجهات المختصة مساعدتها على طبع اثار والدها التي كتبها بالعراق وبودي وبود الكثيرين من المعنين بالتراث ان تقوم الجهات المذكورة بتحقيق هذا الطلب خدمة للتراث الادبي التاريخي الذي سيخدم العراق في الحاضر والمستقبل.

مجلة الف باء تموز ١٩٨١

ان هذه الخدمات الجليلة وتلك المواقف النبيلة يقفها الدكتور زكي مبارك من اجل العراق، هي التي دفعت بابناء العراق الى الدعوة لمنحه لقب ابن بغداد، او ابن العراق، فما على الحكومة العراقية الا ان تعترف بالفضل وتستجيب للنداء فتكرم صاحب هذا الجهاد المشكور والعمل المبرور بمنحه (وسام الرافدين) الذي كان الوسام الوحيد في العراق ولا يمنح الا لذوي الخدمات الجليلة للعراق وللشعب العراقي. وهكذا وبتاريخ ١١ تموز عام ١٩٤٠ صدرت الارادة الملكية بمنحه هذا الوسام من الدرجة الخامسة ومن النوع المدني ثم تنشر هذه الارادة بجريدة الوقائع العراقية في عددها الصادر يوم ١٩٤٠/٧/٢٩.

منح زكي مبارك وسام الرافدين

هذا ولما كان (السيد عبد القادر احمد) صديق الدكتور مبارك ومن المولهين في صداقته فقد سره جدا هذا التقدير فسارع يبرق للدكتور وهو في القاهرة يهنئه بالوسام فما الذي احدثه هذا المنح والتقدير في نفس الدكتور؟ لنستمع اليه وهو يقص علينا فصته قائلا..

في صباح اليوم السادس عشر من حزيران تلقيت اشارة تلفونية من وزارة الخارجية المصرية تسألني عن اسمي الكامل وعن منصبي بوزارة المعارف، واردت ان اعرف الموجب لهذه الاسئلة المفاجئة فقيل: ان اجوبتها ستقدم الى قصر جلالة الملك تمهيدا لوسام ساتلقاه من حكومة العراق.

وفي صباح يوم الخامس عشر من تموز تلقيت برقية من الصديق الكريم عبد القادر احمد الموظف بمديرية الدعاية العامة في بغداد يهنئني بوسام الرافدين.

ومعنى تلك الاشارة وهذه البرقية التي خطرت في بال اهل الصدق والوفاء من اقطاب بغداد، وانا مع ذلك لا أعد (وسام الرافدين) تحية شخصية وانما اعده رمزا لتوكيد الصلات الادبية والعلمية بين مصر والعراق وقد جاهدت في ذلك جهاد الصادقين. واذا كان الله اراد ان اتشرف بعضوية نادي القلم العراقي وان اتشرف بعضوية نادي المثنى وان اتشرف بهدية من جلالة الملك غازي الاول، وان اتشرف بحمل وسام الرافدين، فان الله تباركت اسماؤه خصني بمزية جليلة هي وسام الود الصحيح الذي شرفني به الشعب العراقي، الشعب النبيل الذي قيدني في هواه بقيود متينة من شرف الحب وكرم الاخاء.

واذا قيل ان العراق يجزيني وفاء بوفاء واخلاصا باخلاص فانا اقول اني ساقضي دهري كله مدينا للعراق، ولن استطيع اداء ما للعراق في عنقي من ديون ولو بذلك دمي وروحي في حب العراق واهل العراق!

بهذه المشاعر فاض قلم الدكتور زكي مبارك اثر سماعه بنبأ منحه وسام الرافدين، الا انه وهو في نشوة الفرح يغمر قلبه نتيجة هذا التقدير الذي حرمه في بلده مصر، راح يتحدث في مجلة الرسالة القاهرية (بعددها الصادر يوم ١٩٤٠/٩/٢٣) ويقول:

واذكر بهذه المناسبة ان صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا تلطف فدعاني الى مكتبه ليقدم الي (وسام الرافدين) المهدى الي من حكومة العراق، وقد وثب قلبي من الفرح والانشراح لقيمة الهدية ولقيمة من اتلقى من يديه هذه الهدية، فليس من الميسور في كل وقت ان تكون وزارة المعارف الى اديب في مثل منزلة الدكتور هيكل باشا. الرجل الذي افنى شبابه وعافيته في خدمة الدراسات الادبية والتاريخية والذي يعد قلبه مثالا في الطيبة والصفاء..

(تهنئة من مصر)

وبمناسبة تقدير الحكومة العراقية للدكتور زكي مبارك بمنحه هذا الوسام نشر الاستاذ عامر محمد البحيري قصيدة بمجلة الرسالة الصادرة يوم ١٩٤٠/٨/١٢ قال فيها..

لا ضير ان يلحق التأخير تهنئتي
ما العبرة الحق الا بالخواتيم
كمثيل فعلك، مجهود وتضحية
يتوجان بتقدير وتكريم
ان الوسام الذي اعطيته ثقة
للرافدين وحق غير مهضوم
سفارة لك في الاقطار يحمدها
ساع يؤلف ما بين الاقاليم
مزاج اكؤسها من كوثر شبم
وورد انهارها من عذب تسنيم
الفكر والقلم المفتول ساعده
قد اولياها بمشبوب ومضروم
فانهض (مبارك) للجلى بلا وهن
ما كان مقتحم الجلى بمهزوم
واقبل كاصدق ما هنئت تهنئة
ممن قصائده وحي الخواتيم.

××××

جريدة الهدف البغدادية

وبمناسبة هذا التكريم يناله الدكتور زكي مبارك من الحكومة العراقية، اعلنت جريدة الهدف الاسبوعية لصاحبها السيد عبد المجيد حسن الغزالي اعلانا تقول فيه:

ان الهدف سيصدر عددا خاصا من ثماني صفحات عن الدكتور زكي مبارك ذكرى منحه وسام الرافدين وذلك تقديرا لجهوده الادبية الجبارة التي بذلها في بلاد ليلى المريضة، الا عشت يا طبيبها.. والى اللقاء!!

فما ان وصلت جريدة الهدف الى الدكتور مبارك وقرأ هذا البيان حتى كتب رسالة وجهها الى محرر الجريدة وتثبت نصها فيما يلي:

إلى اخواني في العراق
صديقي محرر "الهدف"

اقدم اليكم والى اخواني عندك اصدق التحيات ثم اذكر انكم قلتم: "ان الهدف سيصدر عددا خاصا في ثماني صفحات عن الدكتور زكي مبارك، ذكرى منحه وسام الرافدين. وذلك تقديرا لجهوده الادبية الجبارة التي بذلها في سبيل لاد ليلى المريضة الا عشت يا طبيبها، والى اللقاء".

كذلك قلتم متفضلين متلطفين، وعن العراق يصدر الفضل واللطف، سمع الله دعاءكم، فانا احب ان اعيش لاتذوق عذوبة الصدق في توكيد الصلات الادبية والعلمية والاخوية بين مصر والعراق ومن ظفر بمثل هذه النية الشريفة فهو خليق بأن يحب طول البقاء.

ان وسام الرافدين الذي تريدون ان تسجلوا ذكراه بعدد خاص من الهدف، هذا الوسام له قيمة عظيمة جدا في نفسي، لانه صدر عن بلاد احببتها اصدق الحب، وكنت ولن ازال سفيرها في كل مكان، حتى صح لاحد اخواني عندكم ان يقول "ان الزكي المبارك يحب العراق اكثر مما يحبه العراقيون" وهذا قول تظهر عليه المبالغة ولكنه حق، فانا احب العراق اكثر مما يحبه العراقيون كما احب مصر اكثر مما يحبها المصريون، وماذا اصنع وقد فطرني الله على الحب حتى صرت في ذلك مضرب الامثال؟

ولكن لاية غاية، ولاي غرض، وبأي سبب أحب العراق؟؟؟

واجيب بان الحب لا يعرف العلل والغايات والاغراض.

على اني اعرف كيف اجيب اذا احرجني السائلون، وهل يصعب علي ان اقول اني عشت في العراق سنة دراسية وكانها حلم جميل، مع ان السنين الدراسية تكون في اغلب الاحوال اصعب واطول من سني يوسف؟

في الاعوام التي قضيتها في باريس كنت حين يقترب رجوعي الى مصر اذهب كل يوم على قدمي لرؤية محطة ليون وانا امني النفس بقرب العودة الى الوطن الغالي.

وفي العام الذي قضيته في بغداد كان صدري يضيق كلما اقتربت ايام الرحيل عن (بغداد).

فما سر ذلك؟؟

اتكون بغداد افتن من باريس؟

وهل خمد حنيني الى وطني حتى تصرفني عنه بغداد؟

لا هذا ولا ذاك، فكيف اذن سيطر العراق كل تلك السيطرة على قلبي؟

السبب واضح كل الوضوح، وهو اني نقلت الصدق عن اهل العراق، فهي عدوى روحية ستلاحقني حيثما توجهت. وانا في سريرة نفسي اعتقد ان اهل العراق يفوقونني في صدق الوداد، ولا يؤذيني ان يكونوا اصدق مني، لاني بذلك في الصدق كل ما املك، وجهد المقل غير قليل.

وقد عجب ناس من ان يكون هذا حالي مع اهل العراق، مع اني في مصر لا اكف عن المشاغبات والجادلات والمصاولات.

ولو تاملوا ان الحال يختلف كل الاختلاف، فانا في العراق امثل وطني فأحيا في فضائلي الذاتية، وأنا في مصر أمثل نفسي فما يهمني ان اكون اشرس الرجال.

فمن طالبني بأن اكون في مصر كما كنت في العراق فهو يطلب المستحيل، فقد كنت في العراق سفيرا لوطني، وانا في مصر عدو لنفسي، ومن حقي ان اعادي نفسي حين أشاء.

وماذا تطلب مني مصر؟ ألا يكفي ان اقوي علاقاتها الودية والاخوية مع الامم العربية؟ الا يكفي ان اخرج من ايامي المعدودة في بغداد بستة مجلدات هي صلة الوصل بين مصر والعراق؟

ويقول اللائمون اني انظر الى العراق بعين المحب المفتون: فكله محاسن وليس فيه عيون، واقول ان هذا هو الادب الصحيح، فما يجوز لرجل عربي ان يرى في بلد عربي غير الجمال، وقد اوغلت في هذا الادب حتى صار عقيدة قوية، فانا اليوم اجد صعوبة شديدة اذا فكرت في ان اهل العراق كسائر الناس قد تجوز عليهم النقائص، وحاشى الله ان يكون في العراق نقائص!

اترونني نجحت في تعليل ما اضمر لاهل العراق من حب؟

وهليحتاج الحب الى تعليل الا عند غلف القلوب؟

اما بعد فانا اقدم اصدق الثناء الى اخواني في العراق، ويسرني ان اقول ان حرصهم على ودادي قد زاد المصريين حرصا على وداد العراق، وزادهم ايمانا باني كنت على حق في الهيام بمحاسن العراق. واهل مصر من ارباب القلوب، وان زعم الزاعمون ان هواهم لا يجاوز ضفاف النهر الميمون الغدوات والروحات، النهر الذي يحفظ عهد الاخوة لدجلة والفرات، النهر الذي يسقي القاهرة وسنتريس.

لكم في مصر اخوان اوفياء، يا ابناء الرافدين، اعزني الله بهم وبكم، وكتب السلامة والعافية لجميع اهل مصر وجميع اهل العراق!.

٥ أيلول سنة ١٩٤٠

(من اوراق الاستاذ سالم الالوسي)

بعض ما رأيت في العراق

ولكن كيف اصل الى العراق؟
كانت هناك مسالك للوصول: الاول الوصول بالطيارة، وهو اسهل الطرق، لانه يمكن المسافر من الفطور بالقاهرة والعشاء في بغداد، ولكني تذكرت اني اعطيت جماعة من تلاميذي موضوعا للانشاء منذ عشر سنين عن (خطر انعدام المسافة في العصر الحديث) وكنت ارى ان الطيران قضى على جانب مهم من الادب الوصفي فلن يكون في الدنيا بعد اليوم رجل مثل ابن بطوطة ولا رجل مثل جان جاك روسو، وانا ارى الشرق العربي اول مرة، فليس من المفيد ان اسافر في طيارة فاحجب عما فيه من انهار ومدائن وسهول!
الطريق الثاني هو طريق البحر من الاسكندرية الى بيروت وهو يعطي الفرصة لرؤية لبنان وسورية، ولكنه يحرمني رؤية فلسطين ويحسني في البحر يوما وبعض يوم، وانا ركبت البحر الى اوروبا اكثر من عشر مرات وشبعت منه وشبع مني!
الطريق الثالث هو السفر من القاهرة الى القنطرة لاختراق فلسطين بالقطار حتى اصل الى حيفا ومنها الى بيروت ثم الى الشام ثم الى بغداد.
ولكن طريق فلسطين كان في ذلك الوقت محفوفا بالمكاره، فقد كانت البرقيات تحدثنا ان الثوار ينسفون القطارات، فلم يصرفني ذلك عن المرور بفلسطين، لاني كنت احب ان ارى البلاد التي يقتتل حول خيراتها العرب واليهود، وقد نهاني بعض الزملاء المسافرين الى العراق فلم انته، وتفردت بتلك المغامرة لاكحل جفني برؤية فلسطين.
وصلت الى القنطرة في ليلة قمراء توحي غرائب الشعر والخيال، فعلمت ان القطار سيتاخر قيامه من هناك ثلاث ساعات حتى لا يدخل فلسطين الا مع ضوء الصباح، تجنبا لمخاطر التعرض لنسفه بالليل. وكذلك عرفت ان من نهوني عن المرور بفلسطين لم يكونوا مخطئين.
قضيت ساعات في مناجاة قناة السويس والتأمل فيما صنعت مصر لخدمة الانسانية، الانسانية الجاحدة التي جهلت ما قدمت مصر من جميل.
وقفت انظر كيف خدمنا بني ادم وكيف اتعبنا اجسادنا وافقرنا جيوبنا لنسهل وسائل النفع ولنصل بين المشرقين والمغربين، ثم لا نجد من يتفضل بكلمة ثناء.
وسار القطار قبيل الصبح فبخلت على عيني بالهجود لارى اطراف مصر من ناحية المشرق ولانظر بساتين فلسطين.
ولم يكفني ما رأيت من فلسطين في الذهاب فقررت المرور عليها في الاياب لاتمتع باختراقها مرتين ولاقتنع بانها بلاد جميلة جذابة تستحق ما ثار حولها من النضال.
ولم ابت في فلسطين الا ليلة واحدة عند الرجوع، وكانت ليلة متعبة، فقد كان محرما على اهل حيفا ان يتجولوا بالليل، وكان من الحزم ان اقضي سهرتي في رحاب الفندق وان حرمني ذلك شهود المجتمع الفلسطيني في تلك المدينة البيضاء.
واعود فاقول اني امتطيت سيارة في ذهابي من حيفا الى بيروت وفي بيروت قضيت ليلة واحدة كانت ابقى اثرا من الليالي الطوال.
مضيت اتنقل في بيروت من مكان الى مكان بعد ان القيت امتعتي في الفندق، ثم اتفق ان عرفني بعض الادباء هناك فساقني ذلك الى زيارة اكثر الجرائد واندفعت فجاذبت اهل بيروت اطراف الحديث وعرفت الوانا من عتابهم على مصر والمصريين، وقد تعقبوني بعد ان وصلت الى العراق فكان بيني وبينهم مناوشات ستعرفون اخبارها حين انشر كتاب (وحي بغداد).
ومن بيروت رحلت الى دمشق مخترقا جبال لبنان فرأيت من جمالها الاعاجيب، ولا ازال مفتونا بما شهدت في الموضع المعروف بسهل البقاع. وفي دمشق رأيت الاستاذ محمد كرد علي والاستاذ عبد القادر المغربي وزرت بعض الزعماء وقضيت لحظات في مناجاة نهر بردي الذي خلده حسان.
ثم اسلمت نفسي الى سيارة (نيرن) لاقطع الصحراء بين الشام والعراق ولارى بنفسي كيف شقي اسلافنا بمخاطر البيداء.
كنت اعرف اني ساقضي اكثر من خمس وعشرين ساعة في ذلك السجن المتحرك، وكان ذلك يغرق نفسي في بحر من الانقباض، ولكن كان يعزيني ما عرفت من اننا سنستريح في كل مدينة تصادفنا في الطريق، ولم يكن في الطريق مدائن وانما هناك محطتان هما الرطبة والرمادي.
وبعد ساعات من عبور الصحراء نظرت فرأيتنا مقبلين على مدينة فيحاء، مدينة تقع على نهر واسع تجري فيه سفائن بخارية وشراعية، فانشرح صدري وقلت سنستريح لحظات ثم عجبت من جهلي بالجانب الجغرافي من ذلك الطريق، فما كنت اعرف ان هناك مدينة تقع على نهر عجاج، وترحمت على استاذي اسماعيل بك رافت الذي اسقطني في امتحانات الجامعة المصرية مرتين لقلة ما كنت اعرف من دقائق علم الجغرافيا وعلم وصف الشعوب.
ولكن لم تمض غير دقائق حتى اختفت تلك المدينة مرة واحدة فعرفت انها كانت اضلولة من اضاليل السراب!
وبعد نصف ساعة لاحت مدينة جديدة، فتاملت مرة ومرتين ومرات فتاكدت انها مدينة حقيقية، وكنت كلما اقتربت منها زدت يقينا باننا سنستريح بعد لحظات، وتمتاز تلك المدينة بما يكثر فيها من منارات المساجد وابراج الكنائس، وبما يحيط بها من حدائق وبساتين، وقد نظرت فرأيت حولها فرقة من الجيش تسير نحو الشرق، وفوق ذلك الجيش يحلق سرب من الطيارات.
ما اسم تلك المدينة؟ ولم نذلك الجيش؟ ولاي غرض يتجه نحو الشرق؟ آه من جهلي بدقائق علم الجغرافيا وعلم وصف الشعوب!
كنت استطيع ان اسأل بعض المسافرين عن تلك المدينة، ولكني خجلت من السؤال. فقد كان فيهم من يعرف اني ذاهب لخدمة العلم في العراق، ومن كان في مثل حالي لا يليق به ان يجهل هذه البسائط الجغرافية.
وما هي الا دقائق حتى اختفت هذه المدينة وعرفت انها كتلك: اضلولة من اضاليل السراب.
ولكن خداع السراب لم يستمر طويلا، فقد اقبلنا على واحة كثيرة النخيل، قد انتشرت فيها منازل صغيرة اكثرها اكواخ، وفيها الوان من الحيوان اكثرها الابل والشاة، وفيها عدد قليل من الاعراب.
لم اطرب كثيرا لظهور هذه الواحة، فقد كنت استبعد ان نقف عندها لحظة او لحظتين فما فيها – فيما اظن مطاعم ولا مشارب حتى يستريح بها المسافرون.
ولكنها على كل حال فرصة للنزول، وساقترح الوقوف عندها بضع دقائق.
آه، ثم آه، هذه ايضا اضلولة من اضاليل السراب.
ولكن هذه الاضاليل ستقفني بعد اشهر موقفا سخيفا جدا، ستكون حفلة الافتتاح للمؤتمر الطبي العربي في بغداد، وسيكون فيها الوزراء والنواب والاعيان وكبار الاطباء، وسيلقي الاستاذ علي الجارم بك قصيدته في تحية المؤتمر فيقول في وصل البيداء:
طالت بنا الصحراء حتى خلتها ابد الابيد
يتخلص المرمى البعيد بها الى مرمى بعيد
كتخلص الحسناء من وعد طوته الى وعود
فاصرخ: اعد يا استاذ، اعد الكلام عن وعود الحسان!
وعندئذ يتلفت الحاضرون فيرون الدكتور زكي مبارك هو الذي يستعيد، فيقول بعضهم لبعض: هذا مجنون ليلى، ولا حرج على المجانين!
وعذرهم في اللوم مقبول فما عرفوا من اضاليل السراب مثل الذي عرفت!

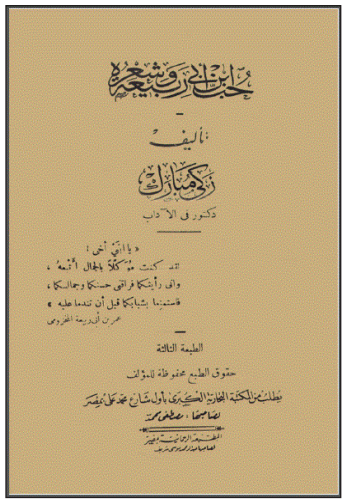

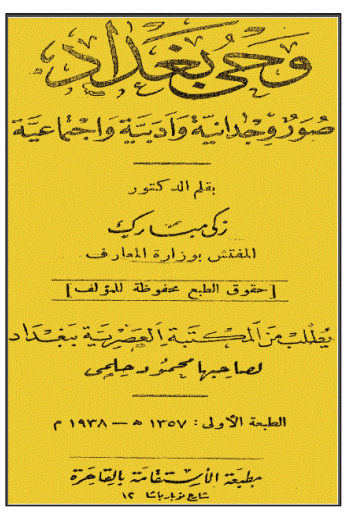

×××

ثم وصلت الى الرطبة تعبان فلم اذق معنى للراحة هناك.

وبعد نصف الليل قضينا مدة في الرمادي فذقت اول مرة طعام العراق.

وبعد الفجر رأيت افواج الفلاحين وهم يسيرون بمواشيهم الى حقولهم على الاسلوب الذي يجري عليه الفلاحون المصريون.

وبعد تفتيش الامتعة اخذت سيارة لادخل بغداد بعد ان بقيت في ذلك السجن المتحرك مدة طويلة رأيت فيها الشروق والغروب ثم الشروق.

×××

الله اكبر ولله الحمد!

هذه بغداد التي قأت عنها ما قرأت، وسمعت في وصفها ما سمعت.

وهذا هو الجسر الذي قال في مثله ابن الجهم:

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري
اعدن لي الشوق القديم ولم اكن
سلوت ولكن زدن جمرا الى جمر
وذلك خيال باب الرصافة الذي تشوق اليه ابن نبانة السعدي فقال:

سقيا لتغليسي الى
باب الرصافة وابتكاري
ايام اخطر في الصبا
نشوان مسحوب الازار
حجي الى حجر الصرا
ة وفي حدائقها اعتماري
ومواطن اللذات اوطا
ني ودار اللهو داري

وما كدت اضع امتعتي في الفندي حتى اخذت عربة ومضيت فسلمت على وزير المعارف فراعني ان ارى شيخا معمما اسمر الوجه فصيح الحديث، وقد سألني عن الصحراء، فاظهرت تألمي لما كابدت وعانيت، فقال: اشكر ربك، فقد قطعتها قبلك في مدة دامت خمسة وعشرين يوما قبل ان تعرفها السيارات، وكان حديثا ممتعا عرفت به من خصائص الصحراء ما لم اكن اعرف.

ومضيت فقيدت اسمي في ديوان حضرة صاحب الجلالة ملك العراق، وانتقلت فسلمت على فخامة رئيس الوزراء، واسرعت فالقيت الدرس الاول في دار المعلمين العالية وانا بغبار الطريق.

سلام الله وسلام الحب على ايامي في العراق

كنت في البداية اظن انني ما حضرت الا لتدريس الادب العربي، فحبست نفسي بين المدرسة والمكاتب زمنا غير قليل.

ثم رأيت ان هذا المسلك غير مقبول لانه سيحجبني عن الخصائص الذاتية للشعب العراقي وخصائص هذا الشعب تفسر كثيرا من دقائق الادب في العصر العباسي، فانقطعت انقطاع يكاد يكون تاما عن المصريين المقيمين في بغداد، واقبلت على البغداديين اصاحبهم واصادقهم واقضي معهم ما تسمح به اعمالي من لحظات الفراغ.

وكانت حجتي ان الشعوب لاتموت، فبغداد التي غيرتها الازمان من احوال الى احوال لا بد ان تحفظ كثيرا من شمائلها الاصيلة لعهودها الذهبية، ولا بد من الوصول الى بعض الاسرار التي قضت بان ينبغ فيها كبار الكتاب والشعراء.

وما هي الا اشهر قلائل حتى كنت على صلات بمختلف الطبقات في بغداد، وحتى صححت لنفسي اخطاء كثيرة في فهم الادب والتاريخ.

وبغداد تنقسم في وضعها الحاضر الى قسمين: بغداد القديمة التي كان يعيش فيها الناس قبل التمدن الحديث، وهي مدينة جافية لمن يراها اول مرة، ولكنها جذابة جدا لمن يعرف روحها الشفاف، هي مدينة تجذب من يعرف اهلها، وهم في اكثر احوالهم على جانب عظيم من الادب والذوق ولطف الاحاسيس وكرم النفس ولن انسى طول حياتي ما لقيت في تلك الدور الجافية من عذوبة الارواح وصفاء القلوب.

كنت ادخل المقاهي في تلك المدينة القديمة فيؤذيني حرمانها من النظافة والتنسيق، ولكن قلبي يتفجر بالعطف حين اتذكر ان هؤلاء الناس قاوموا الحوادث والخطوب حتى حفظوا اصول اللغة العربية وقواعد الاسلام، وحتى استطاعوا ان يحفظوا لانفسهم وجودا خاصا بالرغم من تصاريف الزمان.

في تلك الدور الجافية نشأ ناس تغلبوا على مصاعب اخفها الاوبئة والطواعين!

في تلك الدور الجافية خلقت عواطف واحاسيس واهواء!

في تلك الدور الجافية نبغ شعراء وصفوا الحب والليل!

في تلك الدور الجافية الفت احزاب ودبرت مؤامرات غيرت وضع العراق من حال الى حال!

وكانت لتلك الدور الجافية تقاليد، اهمها الباب المفتوح للجائعين والملهوفين!

اليك ايتها الدور الجافية والى ما يعلوك من رواشن وما يحيط بك من مضايق، اليك في خشوتك التي اراها انعم من خدود الملاح اقدم تحيتي وثنائي!

اما بغداد الجديدة فتصورها الضواحي التي انشئت على النظام الحديث.

وهذه الضواحي تمتد الى افاق بعيدة على شواطئ دجلة، وفيها يعيش المياسير من اهل بغداد، هي ضواح لا تقاس الى الجيزة او مصر الجديدة او المعادي او حدائق القبة، ولكنها بالنسبة الى بغداد القديمة تعد انتقالا سريعا الى اجواء الرفاهية واللين.

وفي الاحياء الجديدة ميل شديد الى الاناقة والتنسيق، ولن تمضي غير سنين قلائل حتى تخلق بغداد كلها خلقا جديدا، بفضل ابنائها الذين يزورون مصر وغير مصر فينقلون الى وطنهم بذور الحضارة والعمران!!

×××

ليس في بغداد مواصلات سريعة على نحو ما في القاهرة او الاسكندرية، فليس فيها ترام ولا مترو وسيارات التاكسي قليلة جدا، وانما يعتمد اهل بغداد على عربات تجرها الخيل، وهناك سيارات عمومية تسمى (باسات) وهي قذرة وضيقة ولايركبها في الغالب الا الطبقة الشعبية.

والنساء في بغداد يؤثرن (الحجاب) وهو الزي الغالب على النساء المسلمات، والسفور لا يشيع الا بين نساء النصارى واليهود، على ان تلميذات المدارس من المسلمات ينتقلن رويدا رويدا الى السفور، ومن المنتظر ان يصرن بعد نحو عشرين عاما الى ما صار ليه الفتيات القاهريات ان لم تقع موجة اجتماعية تردهن جميعا الى مأثور الحجاب.

واهل بغداد لا يشربون الخمر على قارعة الطريق كما يقع في بعض الحواضر المصرية، وانما يشربونها في فنادق مغلقة الابواب، وذلك ادب مقبول.

وقد اذيعت منذ اشهر اوامر توجب ان لا تقدم الخمر في الفنادق والملاهي بعد الحادية عشرة مساء. حفظا لصحة الشعب وآدابه من التبديد.

وفي العراق مدن لايباح فيها بيع الخمر علانية، واشهر المدن في هذا المعنى مدينة النجف وهي مدينة كبيرة، ولكنها مع ذلك خالية من الملاهي والملاعب والمراقص، ولم يدخل فيها الراديو الا بعد جدال طال امده بين العلماء.

ولما زرت النجف جلست على قهوة، فلامني اخواني هناك، وقالوا: سيكتب في التاريخ ان الدكتور زكي مبارك حين زار النجف جلس على قهوة!!.

وسمعت ان احد الموظفين بالكوفة كان يشرب الخمر سرا، فلما علم الاهالي بخبره طاردوه الى ان نقلته الحكومة من هناك.

ويمكن القول بان اهل العراق في جملتهم ينكرون شرب الخمر، تشهد بذلك الحفلة التي اقامها فخامة رئيس الوزراء لاعضاء المؤتمر الطبي فلم يكن فيها شراب غير الماء القراح، ومعنى هذا ان آداب الاسلام لا تزال مرعية في تلك البلاد!

وهناك شارع مشهور يسمى (شارع ابي نواس) وكنت اظنه يشبه شارع وجه البركة في القاهرة، فلما رأيته عجبت، لانه شارع نظيف جدا ييسر دجلة بحيث يمكن ان نسميه (كورنيش بغداد) وفيه قهوات لايباح فيها شرب الخمر على الاطلاق.

وانما نصصت على هذا الجانب من حياة اهل العراق لانه يدخل في صميم المجتمع، ويمثل اذواق الناس اصدق تمثيل.

وقد لوحظ اخيرا ان الفنادق التي تبيع الخمر تكثر فيها المشاجرات فاهتمت الحكومة بالامر وبثت حولها الارصاد والعيون.

ويتصل بهذا ما شهدته حين دخلت بغداد فقد عرفت ان هناك اوامر تعاقب من يفطرون علنا في رمضان، وكذلك ينقضي شهر الصوم وليس فيه مطعم مفتوح اثناء النهار، وليس معنى هذا ان اهل بغداد يصومون جميعا، ولكن معناه انهم يراعون اداب الصيام.

وملاهي بغداد تنقسم الى قسمين: ملاه شرقية وملاه غربية.

اما الملاهي الشرقية فتقوم على الغناء والرقص على نحو ما كنا نشهد في القاهرة منذ سنين. وقد عرفت ان البغداديين لا يسفقون حين يطربون للغناء، وهذا فيما علمت كان من اسباب الوحشة التي احسها الاستاذ محمد عبد الوهاب حين غنى هناك!

اما الملاهي الغربية فتقوم على الرقص الافرنجي، وهي ملاه قليلة جدا، لان الذهاب اليها يعد من العيوب، وهي مع ذلك تزدحم بارواد في اكثر الليالي.

ومن هذا تفهمون ان المجتمع العراقي يعاني صعوبة الانتقال من وضع الى وضع.

وما نقول به في الحكم على مدينة بغداد نقول به في الحكم على مدينة البصرة، ففيها رأيت مرقصا افرنجيا لو شهده الجاحظ لكتب في وصفه رسالة او رسالتين!!

وقد اقمت في مدينة الموصل خمسة ايام فرأيتها اكثر احتشاما من البصرة وبغداد، والسر في ذلك ان الموصل يكثر فيها النصارى فيحرص المسلمون على ادابهم اشد الحرص ليقيموا التوازن بين المذاهب ويذهبوا قالة السوء عن العقيدة الاسلامية.

×××

ويسوقنا هذا الوصف الى الحديث عن تدين اهل العراق، فهم في رأيي من اشد الامم تمسكا بالاسلام، وربما كان العراق هو الامة الوحيدة التي لا تزال تختلف وتأتلف حول المذاهب الاسلامية والاختلاف حول تلك المذاهب يوحي الى الجمهور حب التعمق في درس الاراء والنظريات.

وكذلك يعرف اهل العراق من تاريخ الخلفاء والائمة ما لا يعرف جمهور المسلمين في غير العراق. وفي العراق عدة جمعيات تهتم بنشر المعارف الدينية، منها جمعية الشبان المسلمين، وجمعية الهداية، والجمعية الاسلامية والاخيرة جمعية يديرها جماعة من فضلاء الهنود.

وعلماء الدين في العراق يحترمون أئمة الاسلام احتراما شديدا وقد يصلون في ذلك الى حد التعصب الممقوت، واذكر ان جماعة منهم قاطعوا محاضراتي في بغداد بسبب كتاب (الاخلاق عند الغزالي).

ومحطة الاذاعة العراقية تصنع مثل الذي تصنع محطة الاذاعة المصرية من الاهتمام بتلاوة القرآن واذاعة الاحاديث الدينية، وهم ينظرون الى من يذكرهم بالدين والاخلاق نظر الاحترام والاعجاب وهم يتوجعون لما قد يقع بالمسلمين من سوء، تشهد لذلك مواساتهم التي لا تنقطع لاهل فلسطين.

وجملة القول في هذا الباب ان العواطف الدينية في العراق عواطف سليمة جدا، والمصلح الموفق يستطيع ان يقود العراقيين باسم الدين الى اشرف الغايات.

وهم مع تدينهم اهل مرح وطرب وانشراح، واكثرهم يجيد الغناء.

×××

بقيت كلمة عن خيرات العراق

واقول انهم لم يستطيعوا الى اليوم ان ينتفعوا تمام الانتفاع بما في بلادهم من خيرات، فعندهم نهران عظيمان هما دجلة والفرات، ولكن مياه هذين النهرين يذهب معظمها الى البحر بلا رقيب ولا حسيب.

ويوم يستطيع العراق حبس مياه هذين النهرين ستنقلب سهوله الى رياض وحقول تعود على الناس بالخير العميم، ولعل ذلك قريب. وجو العراق عنيف جدا في الصيف، ولكن ينتظر ان يلطف حين تخزن مياه الانهار وتكثر المزارع والبساتين.

وانهار العراق مسمكة جدا فهم يأكلون السمك في جميع الاوقات وليست انهارهم كنهر النيل الذي يضن بالسمك فلا يراه الفلاح في العام غير مرات معدودات، وكثرة السمك في انهار العراق هي السبب في رخص اللحوم هناك!

وفي العراق يختلف الشمال عن الجنوب.

فالذاهب الى البصرة تروعه النخلات التي تعد بالملايين، والذاهب الى الموصل تبهره حقول الحنطة وهي حقول مسدودة على مسافات طوال. وفي العراق خيرات النفط الذي نسميه البترول، ولها سوق قائمة في كركوك، ويرى المسافر جذوات اللهب من مكان بعيد.

وسكان العراق هم اليوم (نحو اربعة ملايين) ولو استطاعوا تدبير الخيرات في بلادهم لول السكان الى اربعين مليونا.

واخلاق اهل العراق تدور بين الشدة واللين، فهم يسرفون في الحب، ويسرفون في البغض وهم في هذا يتبعون جو بلادهم الذي يرق فيكون نسيما، ويقسو فيكون جحيما.

ذلك ايها السادة بعض ما رأيت في العراق سقته اليكم بلا تزيين ولا تجميل، وهو يصور اهم ما يجب ان تعرفوه عن المجتمع العراقي!!

وفي المحاضرة المقبلة احدثكم عن الحياة الادبية في تلك البلاد لنرى كيف صارت اللغة وصار الادب في الامة التي رفعت لواء النهضة العلمية في عصر بني العباس.

ويسرني وانا في مصر ان اقدم التحية الى سائر اهل العراق راجيا لهم من الخيرات والبركات ما ارجوه لنفسي ولاهلي ولوطني.

حيا الله العروبة، وحيا الله الاسلام.

مع اعضاء الرابطة الادبية في مدينة النجف

عن كتاب زكي مبارك في العراق
عبد الرزاق الهلالي – بيروت ١٩٦٩

سبقت شهرة الدكتور زكي مبارك (١٨٩٢-١٩٥٢) مجيئه الى العراق عام ١٩٣٧، فقد كانت كتبه ذائعة لدى مكتبات العراق، وتهواه الاوساط الفكرية العراقية لجرأته في البحث والكتابة، فضلا عن اسلوبه الادبي الشائق. ولما انتدب للتدريس في العراق، كانت سعادة العراقيين به واهتمامهم لامزيد عليهما. فقد انتدب للتدريس في دار المعلمين العالية استاذا للادب العربي، وكان يومذاك مفتشا في وزارة المعارف المصرية. ووصل بغداد في ٢٣ تشرين الاول ١٩٣٧.

لقد ترك مبارك عند مكوثه في العراق من الذكريات الادبية الشيء الجزيل والجميل، ومن محاسن الايام ان ينهد المرحوم الاستاذ عبد الرزاق الهلالي الى جمع هذه الذكريات الطيبة في كتاب قيم باسم (زكي مبارك في العراق). ومن هذه الذكريات، ما كانت بينه وبين شاعر العراق الكبير معروف الرصافي، وهذا ما نعرضه في هذه السطور.

رفعة عبد الرزاق محمد

الـرصـافـي والـدكـتـور زكـي مـبـارك

حفلة أدباء بغداد

اقام لفيف من ادباء بغداد وصحفييها حفلة تكريمية للدكتور زكي مبارك يوم ٢٧ كانون الاول ١٩٣٧، في قاعة فندق (استوريا)، في شارع الرشيد حضرها سفير مصر ببغداد عبد الرحمن عزام وعدد كبير من ادباء العراق ومثقفيه، وادار الحفلة الصحفي المعروف يونس بحري. ومن المتحدثين رفائيل بطي وابراهيم حلمي العمر وانور شاؤل (قصيدة) ومحمود فهمي درويش وعباس حلمي الحلي وعبد الرحمن البناء (قصيدة)، اما شاعرنا الرصافي فقد بعث من الفلوجة التي تديرها منذ عام ١٩٣٣، قصيدة نشرتها جريدة الاستقلال البغدادية لصاحبها عبد الغفور البدري يوم ١٧ كانون الاول ١٩٣٧، ثم نشرها زكي مبارك في كتابه (ليلى المريضة في العراق)، ومنها:

اذا اطرى الانام فتى اديبا
فلابن مبارك ادب غزير
وعلم لاشبهه ببحر
فقد نضبت بجانبه البحور
لقيت به اخا ادب وعلم
له شبه وليس له نظير
زكا نفسا فيل له زكي
وبورك فالمبارك منه خير
يمج يراعه في الطرس ليلا
يشق دجاه صبح مستنير

لقام (بنثره الفني) جسرا
لمن في الفن اعجزه العبور
جلا بذكائه سدف المعاني
كأن ذكاءه للفهم نور
وخاض عباب بحر من بيان
تحوم عليه من بدع نسور
اذا قرع المنابر يوم حفل
رأيت الناس من فرح تمور
اصاخوا نحوه وقد اشرأبوا
اكفهم تصفق او تشير
اذا افتخرت به مصر وتاهت
فكل بني العراق به فخور

كيف رأى الرصافي؟

وفي كتابه النفيس (وحي بغداد)، كتب الدكتور زكي مبارك كلمة جميلة عن شاعرنا الكبير، بعنوان (كيف رأيت الرصافي)، جاء فيها:

كانت شواغلي في دنياي اضاعت علي كثيرا من الفرص النوادر، فانا لم ار اسماعيل صبري شاعر الحب والوجدان، وكنت استطيع ان اراه ولكني ضيعت الفرصة، وانا لم ار الموسيقار سيد درويش وكنت استطيع ان اراه ولكني ضيعت الفرصة، والشاعر جميل صدقي الزهاوي زار مصر وكنت استطيع ان اراه ولكني ضيعت الفرصة... ولما قدمت بغداد كنت انتظر ان يبدأ الرصافي بزيارتي، ولكنه لم يفعل، ثم علمت انه لايقيم في بغداد، وانما يقيم في الفلوجة، وهي قرية على شاطيء الفرات.

وتحدث المتحدثون انه عليل فرأيت من الذوق ان ابدأ انا بالسؤال عنه، وتفضل الصديق الكريم السيد ثابت عبد النور فصحبني الى الفلوجة مع رفيقين كريمين، ورأينا ان تكون الزيارة فجائية حتى لايتكلف الرصافي نحر الذبائح على الطريقة العربية.

دخلنا على الشاعر وهو شيخ جليل يقارب الخامسة والستين، وكان في اعقاب علة اقام من اجلها شهرا يستشفى في لبنان، فالتفت الى السيد ثابت عبد النور وقال: كيف جئتم على غير ميعاد؟ اما تعرف انه كان يجب ان نحتفل بقدوم الدكتور زكي مبارك الى الفلوجة، فقال السيد ثابت: نحن ما جئنا لزيارتك، وانما جئنا لمشاهدة مطار سن الذبان ورأينا الفرصة سانحة للتسليم عليك. وكانت حيلة طريفة هربنا بها من كرم الرصافي.

وبدأ الشاعر فتحدث عن المازني، المازني العظيم، فانشدنا ابياتا قالها فيه وهو يشبه ادبه بشراب التوت، وما ادري ما شراب التوت، ولكن هكذا قال. ثم امر الشاعر فتاه بأن يحضر كتابه عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام والح الشاعر في ان القي نظرة على ذلك الكتاب وهو مخطوط في عشرة كراريس، وكنت قضيت ساعة في هدوء، فلما وقع بصري على بعض فقرات الكتاب ثرت ثورة عنيفة، وانطلقت اجادله بلا ترفق ولا تلطف. وقابل الشاعر ثورتي بادب رائع دلني على انه من اقطاب العقل. وكان معنى ذلك انه سيفارق الفلوجة يوم ينتخب عضوا في مجلس النواب.

وبعد ايام اقام لي افاضل الادباء في بغداد حفلة تكريم، وفي طريقي الى مكان الحفلة اشتريت جريدة الاستقلال فرأيت في صدرها قصيدة رائعة اراد بها الرصافي ان يسبق اهل بغداد الى تكريمي، وكذلك يكون الذوق في اكرام الضيف. ولم يقف الرجل عند هذا الحد، بل تجشم الانتقال الى كلية الحقوق ليسمع احدى محاضراتي، ثم جاء للسؤال عني في منزلي مرتين، وعرض علي ان اقرأ

صورة لمبارك في بيته وبين كتبه

أيها الصديق العزيز
أقدم اليك اصدق التحيات ثم اقول

تتحـدث اندية القاهرة بانك اخرجت مجلدا ضخما (×)في نقـد كتـاب النـثر الفنـي وكتـاب التصـوف الاسلامـي ويقـال ان ذلك المجلد الضخـم وصل الى كثير من اصحاب الجرائـد والمجلات فهل يكون من حقـي ان اعتب عليـك لانك ضننت علـي بنسخة من كتابـك اعـرف بهـا آراءك في نقد كتـاب النثر الفني وكتاب التصوف الاسلامي؟

انـا حاضر لدفع خمسين دينارا في ثمن كتابك فمن كتابه عـن الرسول وادون ما اشـاء من الملاحظات، فاعتـذرت بضيق الوقت، وبالـغ في اللطف فدعاني الى التشـرف بزيارتـه كلما شئت، ولكـن شواغلي حرمتنـي مـن لطفـه فلـم ازره في منزلـه غير ثلاث مرات، ثم يئس من وفائي فلم يعد يسأل عني.

فمن هو الرصافي؟

هومجموعـة طريفـة مـن العقـل والادب والـذوق والذكاء.

هو صـورة صادقة للروح البغـدادي، الروح المرح الطروب.

هو عنـوان الرجولة الصريحـة التي تمقت الكذب والرياء.

هو بالتاكيد من اثمن ذخائر العراق.

والعراقيـون يعزون شاعرهم كل الاعزاز، ولما قدم لسمـاع محاضرتي بكليـة الحقوق قابلـه الجمهور بتصفيق الاعجاب، ويكفي ان يكون سعادة الاستاذ طه الـراوي من رواة شعر الرصـافي، وطه الراوي من ائمة اللغة العربية، اعزه الله ورعاه.

وللرصـافي ديـوان يقـع في اكـثر مـن خمسمائة صفحـة مـن القطـع الكبـير، ولكـن أي ديـوان؟ هوجذوات من الفكر والمنطق والوجدان، وسيعيش هذا الديوان على التاريخ.

...وديـوان الرصـافي علـى عظمته ليـس كل شعر الرصافي، فلـه شاعرية لم يحوها الديوان، هي ذلك الروح الطروب الذي يهزأ من احداث الزمان.

والرصافي مؤلفا غير معروف، لكن كتابه عن النبي محمـد كتاب هائل جدا وترجع اهميته الى مافيه من نقد الاخبار والاحاديث وقد لا تتسع الصدور لظهور هذا الكتاب، وهذا هو الشاهد على ان اسلافنا كانوا اوسع صدرا واعلى مقاما.

امـا بعد فما كتبت هذه الكلمـة لأفي الرصافي حقه مـن الثناء، فذلـك يحتاج الى مؤلـف ضخم تحدد به نواحي هذه العبقرية.

ما هـذا بحثا مفصلا عن الرصافي، وانما هي كلمة موجزة اردت ان اشـرف بها نفسي فاقول اني زرت بغـداد ورأيت الرصـافي ولعلهـا تكون كفـارة عن تقصـيري في مـودة هذا الشيخ الجليـل، واقسم ما انصرفت عن مودته طائعا، وانما صرفني عن مودته ما القاه القدر على كاهلي من اعباء وتكاليف!

رسائل التعليقات

ذكر الاستاذ الكبير عبد الحميد الرشودي، المؤتمن علـى تركـة الرصـافي، ان الاستـاذ الرصـافي كان من القـراء الجيديـن، وكان مـن عادته عندمـا يقرأ كتابا مهمـا في نظره، ان يعلق علـى حاشية الكتاب ملاحظاتـه وتصويباته واستدراكاتـه على الكتاب، ثـم يعود الى ماسجله فيوسعه حتى يصبح بحثا او مقالا متكامـلا. وكتابه الشهير (رسائـل التعليقات) الصادر عـام ١٩٤٤ ببغداد، هو في الاصل تعليقاته على عدد من الكتب المهمة، وهي:

١ . التصـوف الاسلامـي للدكتـور زكـي مبـارك. صـدر الكتـاب في القاهرة عـام ١٩٣٧ وهو رسالته للدكتوراه من الجامعة المصرية.

٢ . النـثر الفنـي للدكتور زكي مبـارك ايضا، صدر في القاهـرة عـام ١٩٣٤ في جزءيـن، وهـو رسالته للدكتوراه من جامعة باريس.

٣ . التاريـخ الاسلامـي للمستشـرق الايطـالي كايتـاني، اطلـع الرصـافي علـى النسخـة باللغـة التركيـة التي ترجمها حسـين جاهد، وقد استعارها من صديقه الاستاذ كامل الجادرجي وقرأها بامعان وعلق عليها.

اثار كتـاب (رسائل التعليقات) ضجة فكرية كبيرة، ولم تخـل هـذه الضجـة مـن الاهـواء الشخصيـة والسياسية، حتى وصـل الامر بالبعض الى اتهامه بالانحراف عن الدين الاسلامـي ومهاجمة الرسول الكريم، ووصمه آخرون بالكفر والارتداد. وانتقلت الضجـة الى مصـر، وحمـل لـواء المعارضـة ضـد الرصافي الكاتب الناقد دريني خشبة، فنشر مقالاته علـى صفحـات مجلـة ذائعة هـي (الرسالـة) لاحمد حسـن الزيـات، ورد الرصـافي عليـه بمقالتـين في المجلة نفسها (حزيران وتموز ١٩٤٤).

لم يطلع الدكتـور زكي مبارك على كتاب الرصافي في باديء الامر .كما يبدو ،. وعلم بامره من الضجة التـي اثـيرت حولـه، فكتـب الى الرصـافي رسالـة بتاريـخ ١٣ تمـوز ١٩٤٤، اليـك نصهـا كمـا وردت في كتـاب الاستـاذ الفاضـل عبد الحميـد الرشودي الموسوم (رسائل الرصافي):

المؤكد عنـدي انك اعلم مني وانك تقدر بسهولة على تفنيـد آرائي وان كنـت واثقا كل الثقة باني وضعت قدمي على الصخور لا علـى الرمال حين الفت كتاب النثر الفني وكتاب التصوف الاسلامي.

وقـد اختلـف القاهريـون في كتابـك ولا ادري مـا الذي قـال فيـه البغداديـون ولكن هنـاك حقيقة صحيحـة وهـي انـك شغلت عقلـك وفكـرك وذوقك بنقد هذين الكتابين في آماد لاتقل عن خمس سنين. لايهمني الخطأ ولا الصواب فيما اتجهت اليه وانما يهمنـي ان اسجـل انـك شرفتنـي باهتمامـك بنقـد هذيـن الكتابين وليت الذين يهتمـون بنقد مؤلفاتي يكونون دائما في منزلة الاستاذ معروف الرصافي. ثم ارجوك يـا صديقي ان تبلغ تحياتـي الى سعادة الاستاذ طه الراوي ومعالي الاستاذ رضا الشبيبي، وان تذكر اني مشتاق الى محاورتك بالاسلوب الذي اوجب ان تنسخ بعض دفاترك من جديد.

احياني الله واحياك الى ان تراني واراك.

زكي مبارك (××)

(×) لم يكن كتاب (رسائل التعليقات) بالمجلد الضخم وانما يتالف من ٢٠٤ صفحات، وقد طبع في مطبعة المعارف ببغداد.

(××) تـوفي الرصـافي في آذار من السنـة التالية، وبهـذا انتهـت العلاقـة بينهمـا. وقـد ذكـر الاستاذ الرشـودي: انـه كان ذا بـاع ويـراع فصـال وجال وخرج مـن مساجلاتـه القلمية معقـود اللواء حتى لقبـه الزيات صاحـب الرسالـة ب (الملاكـم الادبي) وتحـت شعوره بالغـبن والحيف والتنكـر استسلم للخمـرة يعبهـا في صبوح وغبـوق وفي ذات مساء خـرج مخمورا فكبا كبوة في شـارع عماد الدين في القاهرة ارتج له دماغه وشج رأسه وقد توفي رحمه اللـه في اليوم التـالي ٢٣ كانون الثـاني ١٩٥٢ في مستشفى الدمرداش اثـر عملية جراحية مستعجلة لم يكتـب لهـا النجـاح التـام فخسـر الادب العربـي بموتـه اديبا بـارزا ومنشئا مترسـلا وناقدا جريئا وشاعرا ملهما قلما يجود الزمن بنظيره.

سـر اعـجـابـي بـزكـي مـبـارك

ان علاقتي بالمغفور له الدكتور زكي مبارك قصة تبدأ فصولها منذ ان كنت طالبا بدار المعلمين العالية عام ١٩٣٧ / ١٩٣٨ عندما قرأت في الصحف مع غيري من الناس خبر انتدابه لتدريس الادب العربي في الدار فكان لهذا الخبر رنة فرح وسرور، لا في وسطنا الطلابي فحسب بل في الاوساط الادبية كافة، تلك الاوساط التي رحبت بصاحب (النشر الفني) و(مدامع العشاق) و(الاخلاق عند الغزالي) و(حب ابي ربيعة) و(الموازنة بين الشعراء) ترحيبا عظيما واخذت الصحافة العراقية تشيد بفضله وادبه وتذكر قراءها بمواقفه الادبية ومساجلاته مع كبار ادباء العروبة في ارض الكنانة وغيرها قبل قدومه الى بغداد. ولقد كانت للدكتور زكي مبارك في اذهان ادباء العراق صورة ادبية رائعة اذ عرفوه اديبا قوي الحجة صريح العبارة لايخشى في الحق لومة لائم، وان خرج عن المألوف في ما يكتب او يساجل ويناقش.

عبد الرزاق الهلالي / باحث وأديب راحل

كانت هذه الصفات التي يتصف بها هذا الاديب الكبير معروفة لدى ادباء العراق فلا عجب ان تستقبله الاوساط الادبية في بغداد استقبالا يليق بمكانته في دنيا الثقافة والادب او يكرمه ادباء العراق باجمل ما يكرم به اديب عظيم!.

ثم بدأنا نحن طلاب دار المعلمين العالية نستمتع باحاديث استاذنا الجديد، وتؤخذ بطريقته في التدريس واسلوبه في تقديم المادة وايصال المعلومات الى اذهاننا، فاذا نحن امام طراز جديد من الاساتذة، شدنا اليه شدا، بشخصيته المحببة، وروحه المرحة، وعلمه الغزير وادبه المتدفق وتعليقاته النادرة ولطائفه الساحرة، حتى اذا بدأ يلقي محاضراته في قاعة الحقوق ثم بنشر مقالاته عن (ليلى المريضة في العراق) على صفحات مجلة الرسالة القاهرية ويتحدث من على منبر الاذاعة العراقية او في النوادي والمنتديات الادبية، زدنا اعجابا به وتعلقا بشخصيته ورحنا بشعور او بغير شعور، نشارك في ذلك الجو الادبي الذي اوجده في العراق وخارج العراق، نحضر محاضراته ونقرأ ما يكتبه في الرسالة والصباح والمكشوف او في جرائد ومجلات العراق، التي وجدت في تلك المحاضرات والمقالات والاحاديث، المعين الذي تستقي منه لتروي ظمأ قرائها بافنين من العلم الوثقافة والادب. هذا هو واقع العراق عندما احتضنت بغداد هذا الاديب الكبير، وذلك هو وضع الادباء معه، هنا او هناك، فلا عجب اذا قيل عن (الزكي المبارك) انه بحق وحقيق قد ملأ الدنيا وشغل الناس.

اما انا فقد كنت مع جماعة من طلاب الادب مدفوعين اكثر من سوانا من المعجبين بهذه الشخصية الادبية الفذة حيث اتخذنا من (جريدة الهدف) الاسبوعية لصاحبها السيد عبد المجيد حسن الغزالي الميدان الذي تعرض فيها نثار قلم الدكتور ونعكس اراءه في شتى المواقف الثقافية والادبية ونستتبه فيما يراه او يقترحه من وسائل للنهوض بالحركة الادبية في العراق وما الى ذلك من القضايا الادبية والاجتماعية التي عرضنا بعضا منها في هذا الكتاب.

ثم اخذت ايام السنة الدراسية التي انتدب خلالها الدكتور زكي مبارك تمر سراعا، ولكنه مع كل هذا كان كتلة عمل دائب ونشاط منقطع النظير فهو علاوة على يامه بواجبات التدريس في دار المعلمين العالية كان يسهر الليالي في كتابة فصول (عبقرية الشريف الرضي) وحلقات عدة من سلسلة احاديث (ليلى المريضة في العراق) ويساهم في اجتماعات المؤتمر الطبي العربي الذي انعقد في شهر شباط من تلك السنة ويزور حواضر العراق الكبرى ويسجل ما جرى له فيها وما عنّ عنها من احاديث وذكريات ضمتها صفحات ليلى المريضة او (وحي بغداد) او (ملامح المجتمع العراقي) بعد ذاك.

ولو سألنا الدكتور زكي مبارك عن السر في كل هذا النشاط لاستمعنا اليه وهو يقول.. "لا تسألوني كيف ظلمت نفسي فاعددت هذه المحاضرات وانشأت معها مقالات كثيرة جدا نشرتها في صحف مصر ولبنان والعراق ورججت الحياة الادبية في بغداد رجا عنيفا، فذلك كان اقل ما يجب ان اصنع في مقابل الثقة التي شرفتني بها حكومة العراق".

ثم يقول..

"– وقد تفضلت الطبيعة العراقية فاتحفتني بانفس ما يمتلكون وهو ليل بغداد، ولن اترك لكم هذا الليل، ولهذا الليل ايها السادة احاديث فقد عرفت كيف استطاع علماء العراق ان يملأوا الدنيا علما وادبا، ليل بغداد هو الذي سيخلق زكي مبارك من جديد.

وما انكر ايها السادة اني عرفت فيما سلف ليلا اطول من ليل بغداد، هو ليل باريس، ولكن ليل باريس على طوله كان طيع الصباح بفضل ما هنالك من ملاء وفتون، اما ليل بغداد فلا يعرف شيئا من ذلك، هو ليل العلم، سيصيرني واسفاه، من كبار العلماء!".

وانه اذن لم يعرف طعم الحياة في بغداد، لانه فضى جميع لحظاته والقلم في يده، واتفق من الحبر اضعاف ما انفق من الماء القراح، واحصى ما كتب في هذه الفترة فاذا هو يزيد على خمسة آلاف صفحة!.

وفيما هو منصرف بكل ما وهبه الله من همة ونشاط لخدمة الادب العربي باسلوبه المشرق الجميل اذا بالقدر القاسي يودي بحياة احد الاساتذة المصريين في كلية الحقوق العراقية فيذهب مأسوفا عليه نتيجة اطلاق الرصاص عليه من قبل تلميذ كان في ازمة نفسية عنيفة، فاذا بهذه الفاجعة الاليمة تكشف عن الجوهر المكنون في نفسية الدكتور زكي مبارك الذي وقف يدافع عن العراق ويرد كيد المغرضين ويقول..

– ان من الجريمة ان تنسب هذه الجريمة الى اهل العراق، هي جريمة فردية يسأل عنها جانيها المسكين الذي قتل نفسه بلا ترفق، هي سحابة صيف سيعقبها الصحو والصفاء!!.

وقرأ الشعب العربي بأسف ما كانت تخطه اقلام بعض الكتاب في مصر ضد العراق والعراقيين بسبب هذا الحادث الفردي، كما قرأوا ما كان يكتبه الدكتور زكي مبارك وغيره من احرار الكتاب العرب في ارض الكنانة عن هذا الحادث المحزن المفجع فيزداد الاعجاب بموقفه وتتعالى الاصوات في ربوع الرافدين مقدرة هذه المشاعر العربية الصادقة والروح القومية النبيلة تصدر عن الزكي المبارك فاذا (نادي المثنى) في بغداد ينتخبه (عضو شرف) فيه، واذا الحكومة العراقية تكرمه بمنحه (وسام الرافدين) فننتهز نحن طلابه ومحبوه هذه المناسبة فنصدر عددا خاصا من جريدة (الهدف)

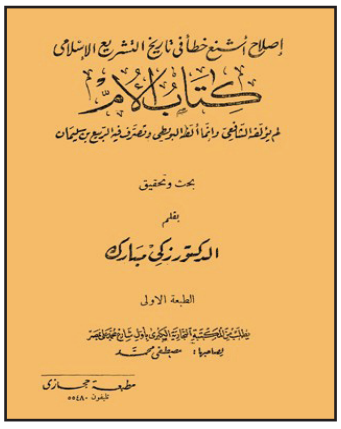

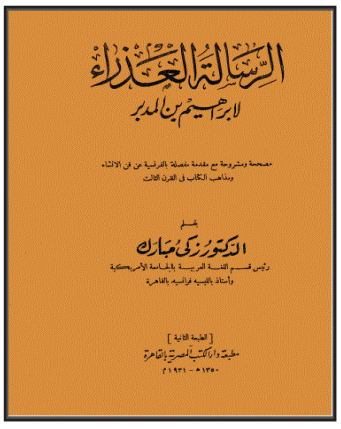

البغدادية نجدد له فيما كتبنا على صفحاتها من نثر وشعر، مشاعر الحب والتقدير والوفاء اعترافا لجهوده التي بذلها في العراق ومواقفه النبيلة من اجل الدفاع عن سمعة العراق.

وتزداد بغد ذاك بين الدكتور زكي مبارك واهل العراق (على حد تعبيره) اواصر الحب والمودة يوما بعد يوم ويكتب بعد ما لمسه منهم من مشاعر الحب والتقدير قائلا..

" وقد فكرت كثيرا في الاسباب التي جعلت لي هذا الحظ المرموق في (العراق) ثم رأيت ان الاسباب كلها تنتهي الى سبب واحد وهو الصدق، فما تحدثت عن العراق الجميل الا وانا صادق، واذا قيل ان العراق يجزيني وفاء بوفاء واخلاص فاني اقول، اني سأقضي دهري كله مدينا للعراق، ولن استطيع اداء ما للعراق في عنقي من ديون ولو بذلك دمي وروحي في حب العراق واهل العراق." .

وفي الوقت الذي يقف منه العراق شعبا وحكومة هذا الموقف اعترافا بما قدم للعلم والثقافة والادب وما بذل من اجل العرب والعروبة، نجده في وطنه لا يجازي الا بالتنكر والاغفال والاهمال، فهو على الرغم من مؤهلاته العلمية والثقافية والادبية لم ينل بعض ما كان يتمتع به من هم دونه علما وفضلا وادبا، لماذا؟ لانه صريح لا يعرف الكذب والرياء والتزلف والنفاق فلا عجب ان نراه برما بحياته في وطنه، بعد ان حاربه بعض ذوي السلطة والبأس حتى في رزقه وحرموا عليها لقمة العيش بينما كان الزعانف والامعات يتنعمون باعلى الرتب والمناصب، وفي وسط هذا الجو الظالم تثور نفسه وتنعكس مشاعره في قصائده ومقالاته.

اما انا فقد بقيت مخلصا لاستاذنا الكبير شأني في هذا الشعور شأن كثير من ادباء العراق فقد كنت من بين كتاب العدد الخاص من جريدة الهدف البغدادية الذي صدر بمناسبة منحه وسام الرافدين عام ١٩٤٠ ثم تمر الايام فاكتب مقالا في مجلة الاقلام العراقية عام ١٩٦٥ بعنوان (زكي مبارك في العراق).

ولكني وجدت وانا أعد هذا المقال كثيرا من الصفحات والملامح الادبية الرائعة التي تنعكس نشاط الدكتور زكي مبارك، وجهاده الثقافي في ربوع الرافدين ووقفت على نتائج انتدابه للتدريس في دار المعلمين العالية وآثارها البعيدة في نفسه وفي حياته الادبية ومشاعره القومية. حتى اذا ضممت بعضها الى بعض رأيت تقديمها كتابا باسم (زكي مبارك في العراق) خدمة للادب والثقافة والتاريخ.

وبعد:

فسواء كنت من تلامذة الدكتور زكي مبارك في دار المعلمين العالية الذين عناهم بقوله: "واما تلاميذي فليس بيني وبينهم ما يوجب العقاب فقد قدمت اليهم جميع ما املك من المعارف الادبية والعلمية والفلسفية وسيصيرون باذن الله من اشرف خدام العراق الخ!" .

او كنت من (اهل العراق) او كنت من (ابناء بغداد)، اقول سواء كنت من هؤلاء، او اولئك فلقد تأثرت اشد التأثر وانا استمع اليه مخاطبا اهل بغداد قائلا..

"سافارقكم يا اهل بغداد، وانا محروم فاذكروني بالشعر يوم اموت وما اريد شعر القوافي وانما اريد شعر الارواح!!" .

وعلى هذا عزمت على اخراج هذه الدراسة بسبب جميع تلك الروابط والدوافع، جاعلا مما جاء فيها من مشاعر واحاسيس نحو هذا الاديب العربي الكبير (شعر الارواح) الذي اراد، آملا ان يجد فيها القارئ المنصف صورة واضحة المعالم عن حقيقة هذه الشخصية العربية الفذة التي تركت لها في حياة العراق الحديث صفحات نيرة يقرأها العراقيون بل العرب اجمعون بكل اعجاب وتقدير.

واخيرا فهذا هو كتاب (زكي مبارك في العراق) اضعه بين يديك ايها القارئ وليس لي في نهاية هذه المقدمة الا ان اختمها بأبيات الدكتور رحمه الله وهو يخاطب بغداد قائلا:

ابغداد هذا آخر العهد فاذكري
مدامع مفطور على الحب بكاء
سيذكرني قوم لديك عهدتهم
يحبون ظلامين ضري وايذائي
ستذكر ارجاء الفراتين شاعرا
تفجر عن مكنونة الدر عصماء
سيسأل قوم من زكي مبارك
وجسمي مدفون بصحراء صماء
فان سألوا عني ففي مصر مرقدي
وفوق ثرى بغداد تمرح اهوائي

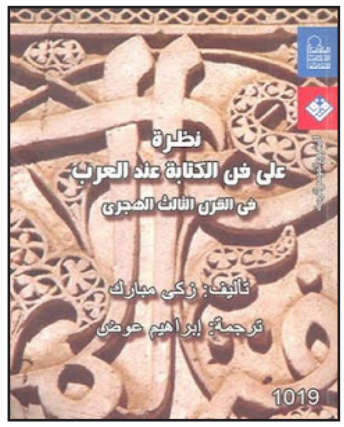

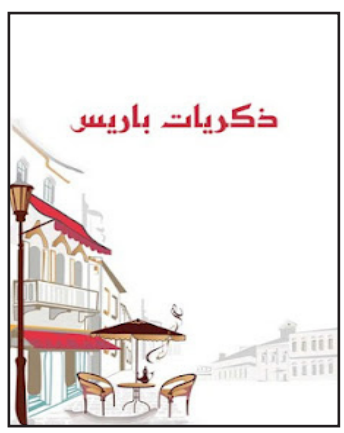

الأديب

أنور شاؤول
شاعر عراقي راحل

روحه تشمل الفضاء الرحيبا
وهو يحيا في كل ارض غريبا

تارة يغمر الوجود غناء
وحنينا طورا وطورا نحيبا

بينما قلبه يسيل صفاء
فاذا بالصفاء يذكو لهيبا

وهو رغم الهادي يعادي من النا
س ورغم الضلال يبقى حبيبا

لاصق بالحياة كالزهرة الغضـ
ـة تعلو الفصن الوريق الرطيبا

وتزق الارواح شهد نداها
فتزيل الظما وتقصي اللغوبا

صامد للزمان اي صمود
ليس يخشى اهواله والخطوبا

ساهر الطرف ليس يشكو سهادا
ساهر الفكر لا يرى متعوبا

يرسل الحكمة المضيئة نجما
سرمديا يتكشف المحجوبا

اقرأوه ان قطر القلب حبرا
واسمعوه ان قام فيكم خطيبا

لا تقولوا هذا (ضلال) اذا ما
شجب الظلم واستدم العيوبا

واتبعوه اذا دعاكم لحق
من حقوق الانسان بات سليبا

كرموه فانه لجدير
ويراع الاديب يغزوا القلوبا

واعضدوه عساه يحرز نصرا
ان يكون المكرم المحبوبا

يحكم السيف في رقاب البرايا
فمن الحيف ان يرى مقلوبا

×××

ايهذا الداعي الى المثل العليا
شبابا غض الاهاب وشيبا

ايهذا الهادي الى كل خير
والى الحق والكمال شعوبا

ايهذا الاديب، يا صرخة البؤ
س ويا عاصف الحياة الريبا

يا مطاف الاحلام، يا بسمة الفجر
ويا ارغن السلام الطروبا

يا اديب العروبة الفذ يا من
كان اهلا لن يسمى اديبا

ليس ما قد تلوت رصف قواف
بل شعوري بل قلبي المسكوبا

عن ديوان (انور شاؤول)

في كتابة القيم "ملامح المجتمع العراقي" يذكر الدكتور زكي مبارك انه عمل في الصحافة العراقية وشارك في سهرات الصحفيين العراقيين الادبية، في دور الجرائد والمجلات العراقية،، من "العراق" و"البلاد" و"زهيرة بغداد" و"الجهاد"، وللاستاذ مبارك اراء وابحاث واجتهادات سالبة عن دور الصحافة، واهميتها في تنمية النشئ ورفع المستوى الحي والفني والادبي للمواطنين.

زين احمد النقشبندي

زكـي مبـارك والصحافـة العراقية

فهو حين يعطي رأيه بالصحافة الحزبية في مصر فيذكر انها مؤذية وكريهة المذاق، فهي تستر شرها بالتحدث عن اشياء من العلوم والادب والفنون، (وهذا فيه الكثير من الصحة والصدق) فالصحافة الحزبية في اي بلد وان كانت تعبر عن رأي الجهة السياسية او الفكر السياسي لمن يصدرها الا انها جزء من تركيبة الحياة الثقافية والاعلامية للبلاد، وبالتالي تدخل ضمن الاطار الحضاري للمرحلة التي تصدر بها، ومن هذا المنطلق فعلى العاملين بالصحافة ان يشبعوا فهم القارئ للثقافة والاداب والعلوم وحسن التوجيه للنشئ الجديد الى مكرم الاخلاق ومفاتيح العلوم.

كما طرح رأيا صائبا في حينه، وقد اخذت به الصحافة العراقية حاليا الا وهو ان تجعل احوال المجتمع العراقي همها الاصيل، لكي تظفر بجاذبية روحية وادبية، تغنيها عن الاهتمام باختبار الوزراء، والجريدة الموفقة هي الجريدة التي تحدث الشعب عن ذات نفسه وتنقله الى آفاق من الفكر والقلب والوجدان، اما الجريدة التي لا تعني بغير الاخبار الرسمية، ولا توجه جهودها لغير الجانب السياسي، فهي جريدة قليلة النفع في ارضاء العواطف واحياء الامال، والصحافة في مصر والقول للاستاذ مبارك – خليقة بان تسمع هذا القول، ويستعيذ بالله منها اذ يقول: هي معدل يهدم ما بين الشعب المصري من اواصر وصلات.

وعن تقييمه للصحافة العراقية في عقد الثلاثينات يذكر انها مشلولة بسبب انعدام التعاون بين السلطة التنفيذية والسلطة الادبية، فمن واجب الحكومة ان تعين الصحافة على نشر مالا خطر في نشرة، من اخبا السياسة الداخلية والخارجية، ومن واجب الصحافة ان تراعي جميع الظروف، فلا تعمل على تهوين اقدار الحاكمين في انفس الحكوميين، في بلد يتأثر بالقيل والقال (كأنه هنا في الاربعينات تنبأ باحداث صبيحة يوم ١٤ تموز/ ١٩٥٨، وانعدام التعاون، بين هاتين السلطتين له نتائج تلمحها من حين الى حين – اعتقد يقصد كثرة الانقلابات والانتفاضات ونرى هنا انه لم يجانب الحقيقة في ذلك، فليست كل الانقلابات والانتفاضات التي حدثت خلال عقدي الاربعينات والخمسينات مظاهر سلبية من ناحية التحليل الاجتماعي للتاريخ او هي نشاطات نحو غاية دون اساس فكري، او تنمية لنشاط الاحزاب والفئات السياسية القائمة انذاك.

وينتقد حاله سلبية في عقد الثلاثينات فيقول (اليس من العجب ان نقرأ في جميع الصحف ان الحال على مايرام، ثم يكون الواقع ان العراق يعاني ازمة وزارية او دستورية) ثم يقارن بين الحالة كل من مصر والعراق فيقول: ان الحرية الصحفية في مصر تصرف المصريين عن خلق الاشاعات والاراجيف، لانها تقوم بهذه المهمة غير قيام، فهي تزود اهل الفضول بما يكفي لازجاء اوقات الفراغ، وتفنيهم عن الافتنان في اختراع الاقاسيس حول مسالك الكبراء والوزراء، ومن هنا يكون في مقدور الحكومة المصرية ان تعرف ما يتحدث به الناس، فتطب له قبل استفحال الداء.

ثم يذكر ان الصحافة العراقية في الاربعينات كانت تحجب ما يدور في اروقة الدوائر والدواوين، فتروض العراقيين على الظن بان الصحافة تطوى عنهم اشياء، فيتولون بانفسهم خلق صحافة جديدة لا يشرف عليها رقيب فتتحول في الاندية والمجالس بلسان مسموم، لايكبحه عنان، ولا يصده وثاق، ومن هنا تفجر الحكومة العراقية عن تطبيب وساوس الجمهور قبل استفحال الداء، ان الصحافة التحريرية يديرها رجال ينهاهم العقل والمنطق والذوق عن الامعنا في الارجاف، اما الصحافة الشفوية فينجب فيها كل مخلوق على حسب هواه، وقد يحترقها اقوام لايعرفون اخطار "الغيبة الاجتماعية" حين تغتاب شخصا لا تؤدي غير رجل، ولكنك حين تغتاب حكومة قد تعرض امة برمتها الى التصدع والانحلال، ولكن ما نتيجة انعدام التعاون بين السلطة التنفيذية والسلطة الادبية في العراق انذاك، النتيجة هي ضعف الادب السياسي، ثم كيف يتيح الكتاب السياسي وقد حرموا القدرة على تشريح المذاهب والاراء؟ ويرجح ان الخطر الكبير على الصحافة العراقية هو محاكاة الصحافة المصرية، فتلك المحاكاة هي سبب البلاء، ويجب ان يكون للصحافة العراقية مسالك جديدة فيها ظروف المكان، وتصلب لادوار المجتمع العراقي بلا تسلط ولا بغي ولا عدوان.

ثم يستطرد فيقول: ارى ان يفكر الصحفيون العراقيون في تزويد جرائدهم باطيب الزاد، من العلوم والاداب والفنون، لتصبح الجريدة وهي جارحة من الجوارح الروحية، لايستغني عنها رجل يتنسم هواء العراق وان كان للصحافة العراقية عذر في العجز من خلق الكاتب السياسي، فما عذرها فيالعجز عن خلق الكاتب الادبي، والكاتب الاجتماعي، وما عذر ادباء العراق في التخلف عن السبق في ميدان التأليف، (حول عمل العراقيين في تلك الفترة بالسياسة يذكر في كتابة "وحي بغداد". والقول له: ان الصحافة العراقية لا تزدهر الا حين تبتعد عن المشكلات السياسية، ولكن كيف وكل امرئ في العراق يشغل نفسه بالسياسة ولو عاش في الدربونة الواقعة خلف شارع صريع الغراني.

ان رأي الاستاذ مبارك هنا هو من اعجب ما قرأنا واظننى لا احتاج للتعليق عليه لان ارتباط وتطور الصحافة مرهون بالسياسة وهو امر بديهي.

صوت مصر في العراق

مصطفى القشاشي

لقد كان لتكريم زكي مبارك في العراق في نفس الدكتور اثر عظيم انعكس في الكلمة التي ارسلها الى صديقه الاستاذ مصطفى القشاشي (صاحب مجلة الصباح القاهرية) بعد ذلك الاحتفال الرائع، وقد نشرها صاحب الصباح في عدد مجلته الصادر بتاريخ ١٩٣٧/١٢/٣١ وفيما يلي نص هذه الكلمة..

صديقي صاحب الصباح..
تحيتي اليك والى اشموز ومحمد والشاب الظريف وسائر الزملاء المحررين بالصباح، وشوقي الى مساء معطر في شارع الهرم او في مصر الجديدة او الزمالك او شارع فؤاد.
وبعد فهذه كلمة لا تنشر الا عندك، لاني لا استطيع ان اوجهها الى احد سواك، ذلك بأني اشعر بفرح هائل لم اشعر بمثله في حياتي الماضية، والفرح العظيم كالحزن العظيم لا يتحدث به الرجل الا الى اعز الاصدقاء وانت ذلك الصديق.
فانت سألت عن اسباب ذلك الفرح العظيم فاني اخبرك ان ادباء بغداد اقاموا لاخيك حفلة تكريم دامت ثلاث ساعات، حفلة شائقة وصفتها جريدة العقاب فقالت: ان اهل بغداد لم يشهدوا مثلها من قبل، وتحدثت عنها جميع الجرائد العراقية اياما متواليات.
واقسم بالله وانا صادق اني لا اكتب اليك هذه الكلمة رغبة في اعلان ذلك التكريم، وانما اتخذها وسيلة لتأدية واجب الشكر نحو اهل بغداد، وما ادري والله كيف اشكر اهل بغداد تلك المدينة السحرية التي عرفت بفضلها كيف يمكن ان يقيم المرء في مدينة بدون ان يكون له فيها عدو واحد: فحيثما توجهت رأيت اخوانا كرماء تنطق وجوههم بالاعزاز والاعجاب وهي اول مرة في حياتي اعيش فيها بلا اعداء!.
ويسرني جدا ان اسجل اسماء الخطباء والشعراء الذين طوقوني بالجميل في ذلك الاحتفال، وهم حضرات الاساتذة: يونس بحري وروفائيل بطي وانور شاؤول ومحمود فهمي درويش ومحمد هادي الدفتر وعباس حلمي الحلي وعبد الرحمن البناء وابراهيم حلمي العمر.
وهؤلاء الخطباء والشعراء لم اكن اعرف منهم غير اثنين، اما الباقون فعرفوني عن طريق مؤلفاتي، وكان ذلك كافيا لان يشتركوا في تكريمي قبل ان يعرفوني معرفة شخصية: فانا اسجل لهم هذا الفضل بطريقة علنية، وارجوا ان يعينني الله على ان اكون عند ظنهم الجميل فاؤدي واجبي في العراق خير اداء واكون سفير الادب بين الرافدين وبين النيل.
وقد تفضل الدكتورم حمود عزمي فالقى خطبة شائقة عن زكي مبارك المشاغب، واثار الذكريات السعيدة التي جمعتنا في باريس، واشار الى الشعب في احاديث زكي مبارك، وقد اعترض سعادة الاستاذ طه الراوي على هذا التعبير، واقترح ان يقال زكي مبارك المحارب، وما انا والله بمشاغب ولا محارب، ولكن هكذا قيل!.
وكانت هذه الحفلة في فندي استوريا بشارع الرشيد، وحضرها جمهور كبير جدا وقدمت فيها الوان الحلوى واكواب الشاي، ورفض صاحب الفندق ان ياخذ شيئا من لجنة الاحتفال، وكانت حجته في ذلك انه لم يلق خطبة في تكريم زكي مبارك فهو يتبرع بنفقات الحفلة! وهذا يا صديقي فن من البلاغة لا يحسنه غير اهل بغداد.
وقد حاولت ان تكون كلمتي اليك معبرة عن كل ماشعر به نحو ادباء العراق، ولكني رأيت عطفهم على اخيك فوق كل بيان، والله سبحانه وتعالى هو القادر على جزاء اولئك الفضلاء.
وحاولت ان افهم سر هذه الحفاوة الشائقة، فكان الجواب ان اهل العراق يرون زكي مبارك من خدام الادب العربي، وكذلك يريد العراق ان يكون حارس الادب في جميع الاجيال، فهو يبدع في الادب ثم يكرم من يراهم من المبدعين.
وابلغ ما سرني في هذه الحفلة انها جمعت بين اقطاب العلم والادب في عاصمة العراق وبين الاساتذة المصريين الذين يتشرفون بخدمة العراق، وكان من المصريين الذين حضروا الحفلة سعادة الاستاذ عبد الرحمن بك عزام وزير مصر المفوض في الاقطار الشرقية.

وقد القيت خطبة في هذا الاحتفال، وكنت احب ان انشرها عندك، ولكنها نشرت كاملة في جريدة البلاد، واهم ما جاء في خطبتي هو الدعوة الى انشاء جامعة عراقية، – وساجدها باذن الله في هذا السبيل جهاد الابطال، فانا اغار على العراق غيرة شديدة وانت تعلم ان اكثر مؤلفاتي في ادب اهل العراق وفلسفة اهل العراق.

صديقي صاحب الصباح:
انني اشعر بالتقصير في تحية الادباء الذين كرموني في بغداد، فارجوك ان تكل هذا الواجب الى احد الزملاء كالاستاذ اشموز او الاستاذ محمد او الشاعر صالح جودت، وثق يا صديقي بانكم لا تردون الجميل عن اخيكم زكي مبارك، وانما تردونه عن مصر، فقد كانت هذه الحفلة سببا لان يرفرف العلم المصري في اطيب مكان بشارع الرشيد.
وحيا الله كل من يعرف الواجب فيصل الاواصر بين الامم العربية التي تجمع بينها لغة القرآن وان اختلفت المذاهب والاراء.

الصباح (القاهرة) ١٩٣٧/١٢/٣١

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
عدنان حسين

مدير التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
ديار خالد

التصحيح اللغوي
محمد حنون

منارات
طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

الدكتور زكي مبارك في مسجد الكوفة